يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ
لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا
إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ
وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

سُورَةُ المَائِدَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحزب
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ
الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ
يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ
وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ
الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا
عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

سورة المائدة

معانى الكلمات :

العقود : العهود المؤكدة . **بهيمة** : كل ذات أربع قوائم فى البر والبحر . **الأنعام** : الإبل والبقر والغنم والماعز . **وأنتم حرم** : حال إحرامكم بالحج أو بالعمرة . **لا تحلوا**: لا تنتهكوا . **شعائر الله** : مناسك الحج . **الشهر الحرام** : رجب ـ ذو القعدة ـ ذو الحجة ـ المحرم . **الهدى** : ما يهدى من الأنعام إلى الكعبة .

القلائد : ما يعلم به الهدى من علامات .

ولا آمين البيت الحرام : ولا تنتهكوا حرمة الحجاج بصدهم عن المناسك .

حللتم: خرجتم من الإحرام .**لا يجرمنكم**: لا يحملنكم . **شنئآن قوم** : بغضكم لهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أهمية الوفاء بالعقود مع الله ، ومع النفس ومع الناس .

٢ ـ أن نلتزم أوامر الله ونجتنب نواهيه فيما أحل وحرم على المسلمين .

٣ ـ أن نتخلق بخلق الوفاء ونتحرى الحلال فى كل أمورنا .

المحتوى التربوى :

تستهل هذه السورة فى أولى آياتها الأمر بالوفاء بالعقود ، ثم المضى بعد هذا الافتتاح فى بيان الحلال والحرام من الذبائح والمطاعم والمشارب والمناكح . وفى بيان الكثير من الأحكام الشرعية والتعبدية . وفى بيان حقيقة العقيدة الصحيحة ، وحقيقة العبودية ـ وحقيقة الألوهية . وفى بيان علاقات الأمة المؤمنة بشتى الأمم والملل والنحل ، وفى بيان تكاليف الأمة المؤمنة فى القيام لله والشهادة بالقسط والوصاية على البشرية بكتابها المهيمن على كل الكتب قبلها، والحكم فيها بما أنزل الله ؛ والحذر من الفتنة عن بعض ما أنزل الله ؛ والحذر من عدم العدل تأثراً بالمشاعر والمودة والشنآن .

obeikandl.com

ويقول صاحب الظلال : عن تشريع الله وأمره للمؤمنين بالوفاء بالعقود « إنه لابد من ضوابط للحياة.حياة المرء مع نفسه التى بين جنبيه ؛ وحياته مع غيره من الناس ومن الأحياء والأشياء عامة ، الناس من الأقربين والأبعدين ، من الأهل والعشيرة ، ومن الجماعة والأمة ؛ ومن الأصدقاء والأعداء ، والأحياء مما سخر الله للإنسان ومما لم يسخر .. والأشياء مما يحيط بالإنسان فى هذا الكون العريض ثم حياته مع ربه ومولاه وعلاقته به وهى أساس كل حياة » .

هذه الضوابط يسميها الله « العقود » .. ويأمر الذين آمنوا أن يوفوا بهذه العقود .. ويكشف عن أن المقصود بالعقود هو كل ضوابط الحياة التى قررها الله ؛ وفى أولها عقد الإيمان بالله ؛ ومعرفة حقيقة ألوهيته ، سبحانه ، ومقتضى العبودية لألوهيته .. هذا العقد الذى تنبثق منه ، وتقوم عليه سائر العقود سواء ما يختص منها بكل أمر ،وكل نهى فى شريعة الله ويأخذ فى تفصيل بعض هذه العقود .

يقول صاحب الأساس : « أحلت لكم هذه الأشياء ، لا مُحلّين الصيد وأنتم محرمون فكأنه أراد أنه أحل لكم الأنعام فى حال امتناعكم عن الصيد وأنتم محرمون لئلا يضيق عليكم . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ من الأحكام . فيُحلُّ ما يشاء ، ويُحرِّم ما يشاء . وله وحده حق الحكم ، وحق التحليل والتحريم ؛ إذ هو الربُّ ، وهو الأعلم بمصالح عباده » .

ويقول صاحب الظلال : « فصار حلالاً لكم ومباحاً أن تأكلوا من كل ما يدخل تحت مدلول « بهيمة الأنعام » من الذبائح والصيد ـ إلا ما يُتلى عليكم تحريمه منها ـ وهو الذى سيرد ذكره محرماً .. إما حرمة وقتية أو مكانية ؛ وإما حرمة مطلقة فى أى مكان وفى أى زمان وبهيمة الأنعام تشمل الإبل والبقر والغنم ، ويضاف إليها الوحشى منها ، كالبقر والحمر الوحشية ثم يأخذ فى الاستثناء من هذا العموم ، وأول المستثنيات الصيد فى حال الإحرام » .

والتحريم هنا ينطبق ابتداء على عملية الصيد ذاتها ، فالإحرام للحج أو للعمرة ، تجرد عن أسباب الحياة العادية وأساليبها المألوفة وتوجه إلى الله فى بيته الحرام ، الذى جعله الله مثابة الأمان ومن ثم يبتغى عنده الكف عن بسط الكف إلى أى حى من الأحياء ، وهى فترة نفسية ضرورية للنفس البشرية ؛ تستشعر فيها صلة الحياة بين جميع الأحياء فى واهب الحياة ؛ وتأمن فيها وتؤمن كذلك من كل اعتداء ؛ وتتخفف من ضرورات المعاش التى أحل من أجلها صيد الطير والحيوان وأكله ؛ لترتفع فى هذه الفترة على مألوف الحياة وأساليبها ، وتتطلع إلى هذا الأفق الرفاف الوضىء .

وقبل أن يمضى السياق فى بيان المستثنيات من حكم الحل العام ، يربط بين هذا العقد بالعقد الأكبر ، ويذكر الذين آمنوا بمصدر ذلك الميثاق : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ ، ثم يستأنف نداء الذين آمنوا لينهاهم عن استحلال حرمات الله ، والمقصود بشعائر الله فى هذا المقام شعائر الحج والعمرة وما تتضمنه من محرمات على المحرم أو العمرة ، حتى ينتهى حجه بنحر الهدى الذى

ساقه إلى البيت الحرام ؛ فلا يستحلها المحرم فى فترة إحرامه ؛ لأن استحلالها فيه استهانة بحرمة الله الذى شرع هذه الشعائر . وقد نسبها السياق القرآنى إلى الله تعظيماً لها ، وتحذيراً من استحلالها.

كذلك حرم الله آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً ، وهم الذين يقصدون البيت الحرام للتجارة الحلال وطلب الرضوان من الله ، حجاجاً أو غير حجاج . وأعطاهم الأمان فى حرمة بيته الحرام ، ثم أحل الصيد متى انتهت فترة الإحرام ، فى غير البيت الحرام ، فلا صيد فى البيت الحرام .

وفى جو الحرمات وفى منطقة الأمان ، يدعو الله الذين آمنوا به ، وتعاقدوا معه ، أن يفوا بعقدهم ؛ وأن يرتفعوا إلى مستوى الدور الذى ناطه بهم ، دور القوامة على البشرية ؛ بلا تأثر بالمشاعر الشخصية ، والعواطف الذاتية ، والملابسات العارضة فى الحياة ، يدعوهم ألا يعتدوا حتى على الذين صدوهم عن المسجد الحرام فى عام الحديبية ؛ وقبل ذلك ؛ وتركوا فى نفوس المسلمين جروحاً وندوباً من هذا الصد ، وخلقوا فى قلوبهم الكره والبغض . فهذا كل شئ ، وواجب الأمة المسلمة شيء آخر ، شيء يناسب دورها العظيم .

ويقول صاحب الظلال : « إنها قمة فى ضبط النفس ؛ وفى سماحة القلب ، ولكنها هى القمة التى لابد أن ترقى إليها الأمة المكلفة من ربها أن تقوم البشرية لتهديها وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم المضيء . إنها تبعة القيادة والقوامة والشهادة على الناس ، التبعة التى لابد أن ينسى فيها المؤمنون ما يقع على أشخاصهم من الأذى ليقدموا للناس نموذجاً من السلوك الذى يحققه الإسلام ، ومن التسامى الذى يصنعه الإسلام . وبهذا يؤدون للإسلام شهادة طيبة ؛ تجذب الناس إليه وتحببهم فيه » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن المؤمن مطالب من قبل الله عز وجل بأن يفى بكل عقد أو عهد أو شرط ، سواء أكان ذلك مع الله أو مع النفس ، إذ المؤمن عند شرطه وعند كلمته ، وعند ما وعد به أو ألزم به نفسه، وأن كل إخلال بشيء من ذلك هو إخلال بالإيمان نفسه .

٢ ـ وأن ما أحله الله لنا ليس لغيره أن يحرمه علينا ، وما حرمه علينا ليس لأحد غيره أن يحله لنا ، مهما كان ذلك الأحد حاكماً أو كبيراً أو ذا جاه وسلطان ؛ لأن التحليل والتحريم من عمل الله سبحانه وتعالى .

٣ ـ إن بناء الإنسان بناءً صحيحاً روحياً وعقلياً وبدنياً واجتماعياً ، إنما يكون فى ممارسة خلق الوفاء ، وفى التعامل الدقيق مع الحلال والحرام وأن الله تعالى قد حكم بما أراد للإنسان فى هذا التشريع من الخير فى الدنيا والآخرة .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ
بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ
السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا
بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ
فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي
مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾
يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم
مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ
عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ
﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ
لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ
بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾
١٠٧

معانى الكلمات :

ما أهل لغير الله به : ما لم يذكر اسم الله عليه . **الموقوذة** : الميتة بالضرب . **المتردية** : الميتة بالسقوط من علو . **النُصب** : حجارة حول الكعبة كانوا يعظمونها . **تستقسموا** : تطلبوا معرفة ما قسم لكم . **الأزلام** : قداح معلمة معروفة فى الجاهلية . **مخمصة** : مجاعة شديدة . **متجانف لإثم** : مائل إليه بتجاوز قدر الضرورة . **مُكَلِّبِينَ** : مُعَلِّمين لها الصيد . **المحصنات** : العفائفُ أو الحرائر .**غير مسافحين** : غير مجاهرين بالزنا . **متخذى أخدان** : مُصاحبى خليلات للزنا سراً .

حبط عمله : بطل ثوابُ عمله السابق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتحرى الحلال والحرام فيما أمر ونهى عنه الله .

٢ ـ أن نقف على الأحكام الواردة فى هذه الآيات مما أحل وحرّم الله .

٣ ـ أن نستيقن أن المنهج الذى أنعم الله به على أمة الإسلام هو الذى يحقق لها خير الدنيا والآخرة .

٤ ـ أن نعلم أن الالتزام بهذا المنهج هو الترجمة الحقيقية للإيمان وأنّ الخروج عليه كفر بما أنزل على رسول الله ﷺ .

المحتوى التربوى :

يأخذ السياق ـ فى هذه الآيات ـ فى تفصيل ما استثناه فى الآية الأولى من السورة من حل بهيمة الأنعام ؛ والميتة والدم ولحم الخنزير ، سبق بيان حكمها ، عند استعراض آية سورة البقرة الخاصة بهذه المحرمات ؛ وأما ما أهل لغير الله به ، فهو محرم لمناقضته ابتداء للإيمان ، فالإيمان يوحد الله ، ويفرده ـ سبحانه ـ بالألوهية ويرتب على هذا التوحيد مقتضياته . وأول هذه المقتضيات أن يكون

التوجه إلى الله وحده بكل نية وكل عمل ، فما يهل لغير الله به ؛ وما يسمى عليه بغير اسم الله ؛ لأنه ينقض الإيمان من أساسه .. فهو خبيث من هذه الناحية ؛ يلحق بالخبائث الحسية من الميتة والدم ولحم الخنزير .

وأما المنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع .. فهى كلها أنواع من أنواع الميتة إذا لم تدرك بالذبح وفيها الروح : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ فحكمها هو حكم الميتة ، على أن هناك تفصيلاً فى الأقوال الفقهية واختلافاً فى حكم التذكية .. والتفصيل يُطلب فى كتب الفقه المختصة

وأما ما ذبح على النصب ، فهو محرم بسبب ذبحه على الأصنام ـ حتى لو ذكر اسم الله عليه ، لما فيه من معنى الشرك بالله . وحرم الله الاستقسام بالأزلام ـ لأنه نوع من الميسر المحرم ـ وحرم اللحوم التى تقسم عن هذا الطريق ، والمضطر الذى يخشى على حياته التلف ، له أن يأكل من هذه المحرمات ؛ ما دام أنه لا يتعمد الإثم ، ولا يقصد مقارفة الحرام ، وتختلف آراء الفقهاء فى حد هذا الأكل، فلا ندخل نحن فى هذه التفصيلات ، وحسبنا أن ندرك ما فى هذا الدين من يسر ، وهو يعطى للضرورات أحكامها بلا عنت ولا حرج مع تعليق الأمر كله بالنية المستكنة ؛ والتقوى الموكولة إلى الله ، فمن أقدم مضطراً لا نية له فى مقارفة الحرام ولا قصد ، فلا إثم عليه إذن ولا عقاب .

ويقول صاحب الظلال : تعليقاً على تخلل قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... ﴾ الآية :

إنه أكمله ـ أى الدين ـ وهو « النعمة » التى يقول الله للذين آمنوا : إنه أتمها عليهم . وأنه لا فرق فى هذا الدين بين ما يختص بالتصور والاعتقاد ؛ وما يختص بالشعائر والعبادات ؛ وما يختص بالحلال والحرام وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية .. فكلها فى مجموعها تكون المنهج الربانى الذى ارتضاه الله للذين آمنوا ؛ والخروج عن هذا المنهج فى جزئية ، كالخروج عليه كله ، خروج على هذا « الدين » وخروج من هذا الدين بالتبعية » .

وبعد أن أنشأ القرآن الكريم فى شعور هذه الفئة المؤمنة ؛ وحدة التلقى عن الله فى الحلال والحرام ، لذلك راحوا يسألون الرسول ﷺ بعدما سمعوا آيات التحريم : ﴿ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ﴾ ليكونوا على يقين من حِلّه قبل أن يقربوه وجاءهم الجواب « قل : أحل لكم الطيبات ...» ويقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : وهو جواب ـ يستحق التأمل : إنهم لم يُحرمَوا طيباً ، فلم يحرم عليهم إلا الخبائث ، وأضاف إلى الطيبات ـ وهو عامة ـ نوعاً منها يدل على طيبته تخصيصه بالذكر بعد التعميم ؛ وهو ما تمسكه الجوارح المعلمة المدربة على الصيد كالصقر على صاحبها : أى أن تحتفظ بها تمسكه من الصيد ؛ فلا تأكل منه عند صيده .

ثم يردهم فى نهاية الآية إلى تقوى الله ، ويخوفهم حسابه السريع ، فيربط أمر الحل والحرمة كله بهذا الشعور الذى هو محور لكل نية وكل عمل فى حياة المؤمن ؛ والذى يحول الحياة كلها صلة بالله ، وشعوراً بجلاله ، ومراقبة لله فى السر والعلانية .

ويستطرد فى بيان ما أحل لهم من الطعام ويلحق به ما أحل لهم من النكاح . ويبدأ ألوان المتاع الحلال مرة أخرى بقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ فأحل لهم طعام الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى خاصة فطعامهم وذبائحهم حلال ، وطعام الذين آمنوا حل لهم أى لا بأس أن تطعموهم من طعامكم ، فإن ذلك جائز لكم ولهم ، وأحل أيضاً نكاح المحصنات أى العفائف من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب وهن العفائف من اليهوديات والنصرانيات وشرط حلهن . أن تؤدى المهور بقصد النكاح الشرعى ، الذى يحصن به الرجل امرأته ويصونها ، لا أن يكون هذا المال طريقاً إلى السفاح أو المخادنة ،ويعقب أخيراً على هذه الأحكام تعقيباً فيه تشديد وفيه تهديد ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « إن هذه التشريعات كلها منوطة بالإيمان ؛ وتنفيذها كما هى هو الإيمان ؛ أو هو دليل الإيمان ، فالذى يعدل عنها إنما يكفر بالإيمان ويجحده . والذى يكفر بالإيمان يبطل عمله ويصبح رداً عليه لا يُقبل منه ، ولا يُقرر عليه ، وفى الآخرة تكون الخسارة فوق حبوط العمل وبطلانه فى الدنيا » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن نترك ونرفض كل قول أو فعل لا يُقصد به وجه الله تبارك وتعالى ، وأن نرفض من المطعومات كل ما لم يذكر اسم الله عليه ، لأنه صار بترك التسمية خبيثاً ، وهذا يدعم فى نفس المؤمن الإخلاص لله وحده فى كل قول أو صمت وفى كل فعل أو ترك .

٢ ـ يتعلم المؤمن أن يكون شجاعاً فى الحق وفى التعبير عن رأيه ـ وليس له أن يخشى أحداً فى ذلك ، إذ الخشية إنما تكون لله وحده .

٣ ـ أن على المسلم أن يتحرى فى أمر دينه حتى لا يقع فيما حرم الله تعالى ، فيبادر بالسؤال عما لا يعرف كما كان يفعل الصحابة رضوان الله عليهم .

٤ ـ اليقين بأن الله تبارك وتعالى وقد أكمل هذا الدين وأتمه ورضيه للبشرية كلها ديناً ، وسع على المؤمنين دائرة الحلال فى مجال الاحتياجات الأساسية للإنسان كالطعام والزواج فأباح كل طيب من الطعام وأباح الزواج من المحصنات من أهل الكتاب ـ على نحو ما سبق .

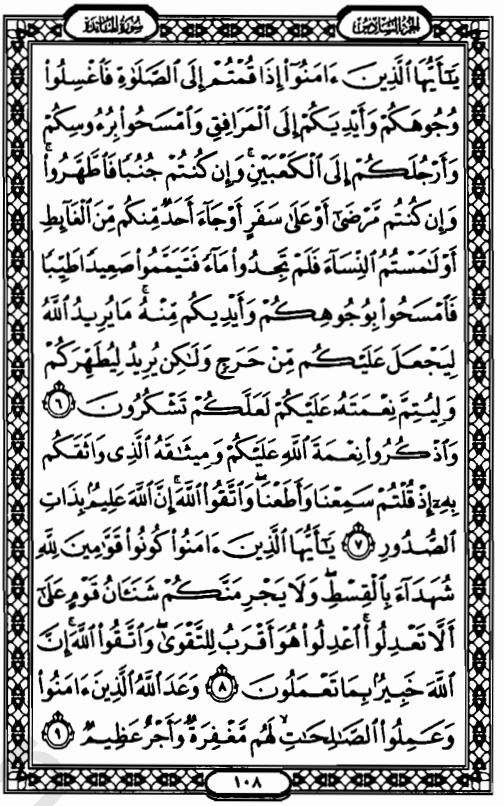
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ
وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ
أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا
فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ
لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾
وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم
بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ
شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ
أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾
١٠٨

معانى الكلمات :

الغائط : دورة المياه (كناية عن الحدث) .

لامستم النساء : جامعتموهن أو مسستم بشرتهن . **صعيداً طيباً** : تراباً طاهراً .

حرج : ضيق فى دينه وتشريعه . **ميثاقه** : عهده . **واثقكم به** : عاهدكم به .

قوامين لله : مستمرين على القيام بعهود الله وأماناته دائما . **لا يجرمنكم** : لا يحملنكم شنآن قوم وبغضكم لهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان الحكمة من الطهارة قبل الدخول فى الصلاة .

٢ ـ بيان الحكمة من تشريع التيمم إذا فقد الماء أو تعذر استعماله .

٣ ـ أن نعرف معنى القوامة بالعدل والشهادة بالقسط ونلتزم بها .

٤ - أن ندرك نعمة الله علينا بالإيمان وميثاق الإسلام .

المحتوى التربوى :

فى الآيات السابقة وفى ظل الحديث عن الطيبات من الطعام والطيبات من النساء يجىء ذكر الصلاة ، ويتواصل الحديث عن أحكام الطهارة للصلاة ، فالصلاة لقاء مع الله ، ووقوف بين يديه ـ سبحانه ـ ودعاء مرفوع إليه ، ونجوى وإسرار . فلابد لهذا الموقف من استعداد ، لابد من تطهر جسدى يصاحبه تهيؤ روحى ، ومن هنا كان الوضوء والطهارة شرطين أساسين للصلاة وهذه هى فرائضه المنصوص عليها فى هذه الآية : غسل الوجه . وغسل الأيدى إلى المرافق . ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين ..

وحول هذه الفرائض خلافات فقهية يسيرة ، أهمها هل هذه الفرائض على الترتيب الذى ذكرت به ؟ أم هى تجزئ على غير ترتيب ؟ قولان . هذا فى الحدث الأصغر . . أما الجنابة ـ سواء بالمباشرة أو الاحتلام ـ فتوجب الاغتسال .

ولما فرغ من بيان فرائض الوضوء والغسل ، أخذ فى بيان حكم التيمم وذلك فى الحالات الآتية : حالة عدم وجود الماء للمحدث على الإطلاق ، وحالة المريض المحدث حدثاً أصغر

يقتضى الوضوء ، أو حدثا أكبر يقتضى الغسل ، والماء يؤذيه ، وحالة المسافر المحدث حدثاً أصغر أو أكبر وهناك خلافات فقهية حول المقصود بقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ .. أهو مجرد الملامسة ؟ أم هى المباشرة ؟ وهل كل ملامسة بشهوة ولذة أم بغير شهوة ولذة ؟ خلاف كذلك هل المرض بإطلاقه يجيز التيمم ؟ أم المرض الذى يؤذيه الماء ؟ خلاف ، ثم هل برودة الماء من غير مرض ، وخوف المرض والأذى يجيز التيمم ، الأرجح نعم .

وفى كل ذلك لا يريد الله ـ سبحانه ـ أن يعنت الناس ، ويحملهم على الحرج والمشقة بالتكاليف . إنما يريد أن يطهرهم ، وأن ينعم عليهم بهذه الطهارة ، وأن يقودهم إلى الشكر على النعمة ، ليضاعفها لهم ويزيدهم منها فهو الرفق والفضل والواقعية فى هذا المنهج اليسير القويم .

يقول صاحب الظلال : « يقودنا الحديث عن التيمم للصلاة عند تعذر الطهارة بالوضوء أو الغسل أو ضررها إلى حرص المنهج الإسلامى على إقامة الصلاة ؛ وإزالة كل عائق يمنع منها ، فهذا الحكم بالإضافة إلى الأحكام الأخرى كالصلاة عند الخوف ، والصلاة فى حالة المرض من قعود أو من استلقاء حسب الإمكان .

كل هذه الأحكام تكشف عن الحرص البالغ على إقامة الصلاة ؛ وتبين إلى أى حد يعتمد المنهج على هذه العبادة لتحقيق أغراضه التربوية فى النفس البشرية ، إذ يجعل من لقاء الله والوقوف بين يديه وسيلة عميقة الأثر ، لا يفرط فيها فى أدق الظروف وأحرجها ، ولا يجعل عقبة من العقبات تحول بين المسلم وبين هذا الوقوف وهذا اللقاء، لقاء العبد بربه وعدم انقطاعه عنه لسبب من الأسباب ، إنها نداوة القلب ، واسترواح الظل ، وبشاشة اللقاء .

ويعقب على أحكام الطهارة ، وعلى ما سبقها من الأحكام بتذكير الذين آمنوا بنعمة الله عليهم بالإيمان ، وبميثاق الله معهم على السمع والطاعة ، وهو الميثاق الذى دخلوا به فى الإسلام، كما يذكرهم تقوى الله ، وعلمه بما تنطوى عليه الصدور ، ومن ثم يكلهم الله فى هذا إلى التقوى .. إلى إحساس القلب بالله ، ومراقبته فى خطراته الخافية ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

ومن الميثاق الذى واثق الله به الأمة المسلمة ، القوامة على البشرية بالعدل ..

العدل المطلق الذى لا يميل ميزانه مع المودة والشنآن ؛ ولا يتأثر بالقرابة أو المصلحة أو الهوى فى حال من الأحوال .

العدل المنبثق من القيام لله وحده بمنجاة من سائر المؤثرات .. والشعور برقابة الله وعلمه بخفايا الصدور .

يقول صاحب الظلال : « لقد نهى الله الذين آمنوا من قبل أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام على الاعتداء . وكانت هذه قمة فى ضبط النفس والسماحة يرفعهم الله إليها

بمنهجه التربوى الربانى القويم. فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل. وهى قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق. فهى مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده ؛ تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض، إن التكليف الأول أيسر ، لأنه إجراء سلبى ينتهى عند الكف عن الاعتداء فأما التكليف الثانى فأشق ؛ لأنه إجراء إيجابى يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبغوضين المشنوئين .

والمنهج التربوى الحكيم يقدر ما فى هذا المرتقى من صعوبة فيقدم له بما يعين عليه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ ويعقب عليه بما يعين عليه أيضًا : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « إن الناس قد يعرفون المبادئ ، ويهتفون بها ، ولكن هذا شىء ، وتحقيقها فى عالم الواقع شىء آخر ، وهذا المبادئ التى يهتف بها الناس للناس طبيعى ألا تتحقق فى عالم الواقع ، فليس المهم أن يدعى الناسش إلى المبادئ ، ولكن المهم هو الجهة التى تصدر منها الدعوة ، المهم هو سلطان هذه الدعوة على الضمائر والسرائر .. » .

وفى النهاية لابد من جزاء للمؤمنين من الله ، الذى يتعاملون معه وحده ؛ يشجع ويقوى على النهوض بتكاليف القوامة ؛ وعلى الوفاء بالميثاق . ولابد أن يختلف مصير الذين كفروا وكذبوا عن مصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند الله . وهو الجزاء الذى يعوض الخيرين عما يفوتهم من عرض الحياة الدنيا ، وهم ينهضون بالتكاليف العليا . والذى تصغر معه تكاليف القوامة على أهواء البشرية وعنادها ولجاجها فى هذه الأرض ثم هو العدل الإلهى الذى لا يسوى بين جزاء الخيرين وجزاء الأشرار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن مبنى العمل فى الإسلام على اليسر لا العسر ، وأن كل تعنت أو تشدد لا يقره الدين .

٢ ـ أن كل عامل من أجل الإسلام يجب أن يكون عمله فى حدود إمكاناته ، وما يحسن لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها .

٣ ـ أن طهارة القلوب من الغل والحسد فى أهمية طهارة الأبدان من النجاسة والقذر .

٤ ـ على الدعاة إلى الله أن يتحرروا جميعًا من كل ما يحول بينهم وبين القيام بالعدل والقسط فى العمل من أجل الإسلام ، بادئين بأنفسهم ثم بإخوانهم ثم بمن يعملون معهم من الناس .

٥ ـ إن الإيمان مرتبط دائمًا بالعمل الصالح ، وأن المؤمن هو الذى يعمل بالصالحات وأن هذا الإيمان إذا صح وكان قرينًا للعمل الصالح أهلَّ أصحابه لخيرى الدنيا والآخرة ، أما خير الدنيا فهو الرضا والاطمئنان ، والنصر فى معركة الحق والباطل . لأن ذلك وعد الله .﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الروم) .

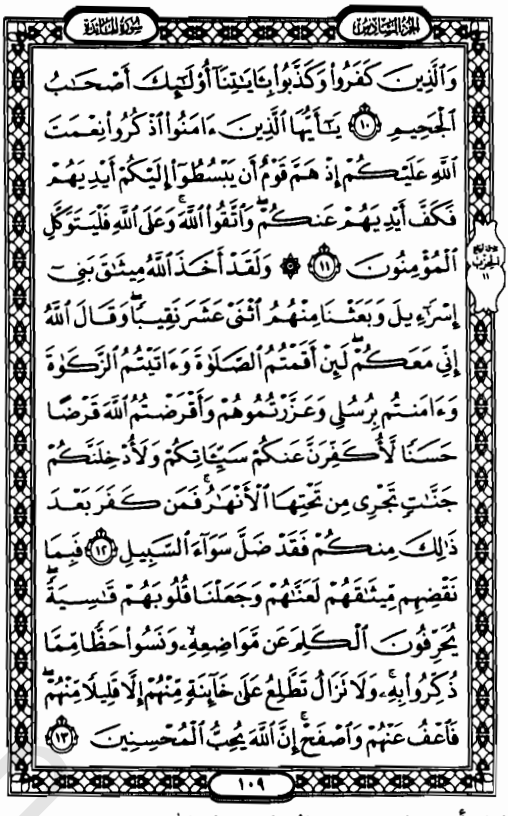
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

معانى الكلمات :

يبسطوا إليكم أيديهم : يبطشوا بكم بالقتل **نقيباً** : أميناً ، وكفيلاً . **عزرتموهم** : نصرتموهم أو عظمتموهم . **أقرضتم الله** : تصدقتم . **قرضاً حسنا** : ابتغاء مرضاة الله . **لعناهم** : طردناهم من رحمتنا . **يحرفون الكلم** : يغيرون كلام الله . **نسوا حظاً** : تركوا نصيباً وافراً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على نعم الله علينا ونشكرها ونحافظ عليها .

٢ ـ أن نوفى بميثاقنا وعهودنا مع الله تعالى ونحذر عاقبة النكوث بها .

٣ ـ أن نتعلم فن الأخذ بالأسباب فى كل أمورنا ونحسن التوكل على الله .

٤ ـ أن نعرف حال عدونا ـ اليهود ـ ونتعامل معهم من منطلق هذا العلم .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يمضى السياق يقوّى فى الجماعة المسلمة روح العدل والقسط والسماحة ؛ ويكفكف فيها شعور العدوان والميل والانتقام .. فيذكر المسلمين نعمة الله عليهم فى كف المشركين عنهم ، حين هموا فى عام الحديبية ـ أو فى غيره ـ أن يبسطوا إليهم أيديهم بالعدوان ، وتختلف الروايات فيمن تعنيهم هذه الآية . ولكن الأرجح أنها إشارة إلى حادثة المجموعة التى همت يوم الحديبية أن تغدر برسول الله ﷺ وبالمسلمين ، فتأخذهم على غرة ، فأوقعهم الله أسارى فى أيدى المسلمين .

وأياً ما كان الحادث ، فإن عبرته فى هذا المقام هى المنشودة فى المنهج التربوى الفريد ، وهى إماتة الغيظ والشنآن لهؤلاء القوم فى صدور المسلمين كى يفيئوا إلى الهدوء والطمأنينة وهم يرون أن الله هو راعيهم وكالئهم وفى ظل الهدوء والطمأنينة يصبح ضبط النفس ، وسماحة القلب ، وإقامة العدل ميسورة ، ويستحى المسلمون ألا يفوا بميثاقهم مع الله ؛ وهو يرعاهم ويكلؤهم، ويكف الأيدى المبسوطة إليهم .

وتمضى الآيات لتستعرض مواقف أهل الكتاب من مواثيقهم ؛ واستعراض ما حلَّ بهم من العقاب نتيجة نقضهم لهذه المواثيق ؛ لتكون هذه ـ من جانب ـ تذكرة للجماعة المسلمة ماثلة من بطون التاريخ ، ومن واقع أهل الكتاب قبلهم ، وليكشف عن حقيقة أهل الكتاب وحقيقة موقفهم ؛ وذلك لإبطال كيدهم فى الصف المسلم ؛ وإحباط مناوراتهم ومؤامراتهم ؛ التى يلبسونها ثوب التمسك بدينهم ، وهم فى الحقيقة قد نقضوا هذا الدين من قبل؛ ونقضوا ما عاهدوا الله عليه .

لقد كان ميثاق الله مع بنى إسرائيل ميثاقاً بين طرفين ؛ متضمناً شرطاً وجزاء ، والنص القرآنى يثبت نص الميثاق وشرطه وجزاءه ، بعد ذكر عقد الميثاق وملابسات عقده .. لقد كان عقداً مع نقباء بنى إسرائيل الاثنى عشر ، الذين يمثلون فروع بيت يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ وهم ذرية الأسباط ـ أحفاد يعقوب ـ وعدتهم اثنا عشر سبطاً .

وكان شرطه إقامة الصلاة .. لا مجرد أدائها ، وإقامتها على أصولها التى تجعل منها صلة حقيقية بين العبد والرب؛ وعنصراً تهذيبياً وتربوياً وفق المنهج الربانى القويم ، وناهياً عن الفحشاء والمنكر حياء من الوقوف بين يدى الله بحصيلة من الفحشاء والمنكر !

وإيتاء الزكاة اعترافاً بنعمة الله فى الرزق ؛ وطاعة له فى التصرف فى هذا المال وفق شرطه وهو المالك ، والناس فى المال وكلاء . وتحقيقاً للتكافل الاجتماعى بين المجتمع ، والإيمان برسل الله كلهم دون تفرقة بينهم . فكلهم جاء من عند الله وبدين الله ، وليس هو مجرد الإيمان السلبى ، إنما هو الإيمان الإيجابى فى نصرة الرسل وشد أزرهم فيما ندبهم الله له ، فدين الله ليس مجرد تصور اعتقادى ، ولا مجرد شعائر تعبدية ، إنما هو منهج واقعى للحياة . ونظام محدد يصرف شؤون هذه الحياة ويحتاج إلى نُصرة ، وتعزيز وجهاد لتحقيقه ولحمايته بعد تحقيقه وإلا فما وفى المؤمن بالميثاق .

وبعد الزكاة إنفاق عام ؛ إنه قرض لله ، وهو المالك ، والواهب ولكنه ـ فضلاً منه ومنة ـ يسمى ما ينفقه الموهوب له ـ متى أنفقه لله ـ قرضًا لله .

ذلك كان الشرط فأما الجزاء فكان : تكفير السيئات ، وجنة تجرى من تحتها الأنهار ، وهى فضل خالص من الله ، لا يبلغه الإنسان بعمله ، إنما يبلغه بفضل من الله ، حين يبذل الجهد ، فيما يملك وفيما يطيق وكان هنالك شرط جزائى فى الميثاق : ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .

ذلك كان ميثاق الله مع نقباء بنى إسرائيل . عمن وراءهم . وقد ارتضوه جميعاً ؛ فصار ميثاقاً مع كل فرد فيهم ، وميثاقاً مع الأمة المؤلفة منهم .. فماذا كان من بنى إسرائيل ! لقد نقضوا ميثاقهم مع الله .. قتلوا أنبياءهم بغير حق ، وبيتوا القتل والصلب لعيسى عليه السلام وهو آخر أنبيائهم ـ وحرفوا كتابهم ـ التوراة ـ ونسوا شرائعها فلم ينفذوها ، ووقفوا من خاتم الأنبياء ﷺ موقفاً

لئيماً ماكراً عنيداً ، وخانوه وخانوا مواثيقهم معه . فباؤوا بالطرد من هدى الله ، وقست قلوبهم فلم تعد صالحة لاستقبال هذا الهدى ...

ويصور السياق حال يهود فى المجتمع المسلم فى المدينة . فهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسول الله ﷺ وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة ـ وما تزال هذه حالهم فى المجتمع الإسلامى على مدار التاريخ ؛ لذا يخاطب النص القرآنى النبى ﷺ : ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « إن هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ومرشدها ورائدها وحادى طريقها على طول الطريق . وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها ، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله ، ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها ؛ وتسمع توجيهاته ؛ وتقيم قواعده وتشريعاته فى حياتها ، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها فى يوم من الأيام ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها ؛ وحين اتخذت القرآن مهجوراً ـ وإن كانت ما تزال تتخذ منه ترانيم مطربة ، وتعاويذ ورقى وأدعية ! ـ أصابها ما أصابها » .

ولقد كان الله ـ سبحانه ـ يقص عليها ما وقع لبنى إسرائيل من اللعن والطرد وقسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه ، حين نقضوا ميثاقهم مع الله ، لتحذر أن تنقض هى ميثاقهامع الله ، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد ، ناقض للعقد .. فلما غفلت عن هذا التحذير ، وسارت فى طريق غير الطريق ، نزع الله منها قيادة البشرية ؛ وتركها هكذا ذيلاً فى القافلة ! حتى تتوب إلى ربها ، وحتى تتمسك بعهدها ، وحتى توفى بعقدها . فيفى لها الله بوعده من التمكين فى الأرض ومن القيادة للبشرية والشهادة على الناس .. وإلا بقيت هكذا ذيلاً للقافلة ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ (الروم : ٦) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويّصا :

١ ـ أن يكون المؤمنون دائماً على ذكر لنعم الله عليهم ؛ إذ هم محاطون دائمًا بنعم لا تحصى ، من أجلِّها وأعظمها نعمة الإيمان والإسلام ثم نعمة الحياة والعقل والسمع والبصر والفؤاد .

٢ ـ أن يتعلم المؤمن أنه مطالب بتقوى الله دائماً ، والتقوى تكون بتوقى الشر والسوء وكل ما يغضب الله ، وبذل الجهد فى ذلك .

٣ ـ على الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى أن يتعلموا من هذه الآيات أموراً أساسية لا ينجح العمل إلا بها هى :

١ ـ تقوى الله فى كل قول أو صمت وفى كل عمل أو ترك .

٢ ـ التوكل على الله والاعتماد عليه لا على العمل الذى قام به الإنسان مهما كان .

٣ ـ الأخذ بالأسباب كاملة ، لا يغنى عن التوكل على الله فى كل أمر .

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ
فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ
وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ
بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ
قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا
كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن
كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ
مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ
سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى
ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ
﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ
ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ
أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي
ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾

معانى الكلمات :

فأغرينا : هيجنا وحرشنا أو ألصقنا .

نور : هو محمد ﷺ .

كتاب مبين : هو القرآن الكريم .

سبل السلام : طرق النجاة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان جحود اليهود والنصارى لكثير من الأحكام الشرعية ودلائل النبوة المحمدية مكراً وحسداً من عند أنفسهم .

٢ ـ أن نعلم أن القرآن حجة على الناس كافة لبيانه الحق فى كل شىء .

٣ ـ بيان القول الفصل فى شأن المسيح عليه السلام وأمه .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يقص الله ـ سبحانه ـ على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة ، أنه أخذ ميثاق الذين قالوا : إنا نصارى ، من أهل الكتاب ، ولكنهم نقضوا ميثاقهم كذلك . فنالهم جزاء هذا النقض للميثاق ..

ولقد كان أساس الميثاق هو توحيد الله . وهنا كانت نقطة الانحراف الأصلية فى خط النصرانية التاريخى . وهذا هو الحظ الذى نسوه مما ذكروا به ؛ ونسيانه هو الذى قاد بعد ذلك إلى كل انحراف . كما أن نسيانه هو الذى نشأ من عنده الخلاف بين الطوائف والمذاهب ، التى لا تكاد تُعد ، فى القديم والحديث ، وبينها من العداوة والبغضاء ما يخبرنا الله سبحانه أنه باق فيهم إلى يوم القيامة .. جزاءً وفاقاً على نقض ميثاقهم معه ، ونسيانهم حظاً مما ذكروا به .. ويبقى جزاء الآخرة عندما ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ؛ وعندما يجزيهم وفق ما ينبئهم به مما كانوا يصنعون !

وبعد أن تعرض الآيات موقف اليهود والنصارى من ميثاقهم مع الله .. توجه الآيات الخطاب لأهل الكتاب جميعاً .. هؤلاء وهؤلاء .. لإعلانهم برسالة خاتم النبيين ؛ وأنها جاءت إليهم ـ كما جاءت للعرب الأميين ، وللناس أجمعين .

obeikandl.com

فهم مخاطبون بها،مأمورون باتباع الرسول الخاتم ـ وهذا طرف من ميثاق الله معهم كما سبق، وأن هذا الرسول الخاتم قد جاء يكشف لهم عن كثير مما كانوا يخفونه من الكتاب الذى بين أيديهم ؛ والذى استحفظوا عليه فنقضوا عهدهم مع الله فيه ؛ ويعفو كذلك عن كثير مما أخفوه ، ولم تعد هناك ضرورة له فى الشريعة الجديدة .

وتعرض كذلك الآيات بعض الانحرافات التى جاء الرسول الخاتم ﷺ ليقومها فى معتقداتهم : كقول النصارى : إن المسيح عيسى ابن مريم هو الله ، وكقولهم هم واليهود نحن أبناء الله وأحباؤه .. ويختم هذا النداء بأنه لن تكون لهم حجة عند الله بعد الرسالة الكاشفة المبينة المنيرة ؛ ولن يكون لهم أن يقولوا: إنه مرت عليهم فترة طويلة بعد الرسالات فنسوا ولبس الأمر عليهم .

ويقول صاحب الظلال : « وفى هذا النداء الإلهى لأهل الكتاب ، يسجل عليهم أنهم مدعوون إلى الإسلام. مدعوون للإيمان بهذا الرسول ونصره وتأييده كما أخذ عليهم ميثاقه . ويسجل عليهم شهادته ـ سبحانه ـ بأن هذا النبى الأمى هو رسوله إليهم ـ كما أنه رسول إلى العرب ، وإلى الناس كافة ـ فلا مجال لإنكار رسالته من عند الله أولاً ؛ ولا مجال للادعاء بأن رسالته مقتصرة على العرب ، أو ليست موجهة إلى أهل الكتاب ثانياً » .

ويبين لهم طبيعة ما جاء به هذا الرسول ، ووظيفته فى الحياة البشرية ، وما قدر الله من أثره فى حياة الناس فلقد جاءهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن الله ، ويهديهم إلى صراط مستقيم، وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب ـ القرآن ـ وعلى طبيعة هذا المنهج ـ الإسلام ـ من أنه نور .

ويقول صاحب الظلال : « وما أدق هذا التعبير وأصدقه ؛ إنه « السلام » هو ما يسكبه هذا الدين فى الحياة كلها .. سلام الفرد وسلام الجماعة وسلام العالم .. سلام الضمير ، وسلام العقل والجوارح .. سلام البيت والأسرة ، وسلام المجتمع والأمة وسلام البشر والإنسانية .. السلام مع الحياة والكون . والسلام مع الله رب الكون والحياة .السلام الذى لا تجده البشرية ـ ولم تجده يوماً ـ إلا فى هذا الدين ؛ وإلا فى منهجه ونظامه وشريعته ، ومجتمعه الذى يقوم على عقيدته وشريعته » .

ويقول :

إننا نعانى من ويلات الجاهلية ؛ والإسلام منا قريب . ونعانى من حرب الجاهلية وسلام الإسلام فى متناول أيدينا لو نشاء .. فأية صفقة خاسرة هذه التى نستبدل فيها الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ ونشترى فيها الضلالة بالهدى ؟ ونؤثر فيها الحرب على السلام ؟ إننا نملك

إنقاذ البشرية من ويلات الجاهلية وحربها المشبوبة فى شتى الصور والألوان ، ولكننا لا نملك إنقاذ البشرية ، قبل أن ننقذ نحن أنفسنا ، وقبل أن نفىء إلى ظلال السلام ، حين نفىء إلى رضوان الله ونتبع ما ارتضاه . فنكون من هؤلاء الذين يقول الله عنهم إنه يهديهم سبل السلام » .

ويمضى السياق ليقرر وجه الحق فى قضية المسيح ﷺ ، وليقول كلمة الفصل ، ويجىء الرسول الخاتم ﷺ ليبين لأهل الكتاب حقيقة العقيدة الصحيحة ، ويثير فيهم منطق العقل والفطرة والواقع فيفرق تفرقة بين ذات الله سبحانه وطبيعته ومشيئته وسلطانه ، وبين ذات عيسى ﷺ وذات أمة ، وكل ذات أخرى ، فى نصاعة قاطعة حاسمة .

فذات الله سبحانه ـ واحدة ، ومشيئته طليقة ، وسلطانه متفرد ، ولا يملك أحد شيئا فى رد أو دفع سلطانه إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً . وهو ـ سبحانه ـ مالك كل شىء ، وخالق كل شىء ، والخالق غير المخلوق . وكل شىء مخلوق .

وكذلك تتجلى نصاعة العقيدة الإسلامية ، ووضوحها وبساطتها .. وتزيد جلاء أمام ذلك الركام من الانحرافات والتصورات والأساطير والوثنيات المتلبسة بعقائد فريق من أهل الكتاب وتبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية . فى تقرير حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية والفصل التام الحاسم بين الحقيقتين بلا غبش ولا شبهة ولا غموض .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ حرمة نقض العهود ونكث المواثيق ولا سيما ما كان بين العبد وربه عز وجل .

٢ ـ الغدر والخيانة جبلة فى اليهود فقلّ من سلم منهم من هذه الجبلة .

٣ ـ استحباب العفو عند القدرة ، فهذا سمت الصالحين .

٤ ـ نتعلم أن قدرة الله وطلاقة هذه القدرة لا حدود لها ، فهو سبحانه له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وما فيهن وما بينهما وهو سبحانه على كل شىء قدير .

٥ ـ لابد للاهتداء بكتاب الله من إيمان أولاً ، يستتبع ذلك اهتداء بكتاب الله ،ويستتبع ذلك السير بالطرق الموصلة إلى رضوان الله ، ويستتبع ذلك هداية إلى الصراط المستقيم الموصل إلى الجنة .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ۖ فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾
١١١

معانى الكلمات :

أبناء الله : نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء . **فترة** : انقطاع للوحى ، وسكون وفتور . **الأرض المقدسة** : بيت المقدس وما حوله . **لا ترتدوا** : لا ترجعوا منهزمين .

أدباركم : « دبر » كل شىء مؤخرته .

جبارين : لا يمكن مقاومتهم . **أنعم الله عليها** : بالإيمان والطاعة والشجاعة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان الرد على مزاعم اليهود والنصارى فى قولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه.

٢ ـ بيان فساد اليهود بكشف الآيات عن مخازيهم مع أنبيائهم .

٣ ـ بيان أهمية الانصياع لأوامر الله ورسوله كأحد أسباب النصر .

٤ ـ بيان ضرورة الأخذ بالأسباب والتوكل على الله فى كل الأمور .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات ردها على مزاعم اليهود والنصارى فلقد قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وكانوا يقولون ـ تبعاً لهذا ـ إن الله لن يعذبهم بذنوبهم ! وإنهم لن يدخلوا النار ـ وإذا دخلوا ـ لا يمكثون فيها إلا أياماً معدودات . ومعنى هذا أن عدل الله لا يجرى مجراه ! أو أنه سبحانه ـ يحابى فريقاً من عباده ، فيدعهم يفسدون فى الأرض ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين ! فأى فساد يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التصور ؟

وهنا يرد القرآن على هذا الفساد فى التصور ، ويقرر عدل الله الذى لا يحابى أحداً ، ويقرر بطلان ادعاء البنوة ؛ فهم بشر ممن خلق .

ويقرر عدل الله وقيام المغفرة والعذاب عنده على أصلها الواحد . على مشيئته التى تقرر الغفران بأسبابه وتقرر العذاب بأسبابه لا بسبب بنوة أو صلة شخصية !

ثم يكرر أن الله هو المالك لكل شيء ، وأن مصير كل شيء إليه ، وينهى هذا البيان بتكرار النداء الموجه إلى أهل الكتاب، يقطع به حجتهم ومعذرتهم ويقفهم أمام « المصير »وجها لوجه، بلا غبش ولا عذر ، ولا غموض . فلا تعود لهم الحجة فى أنهم لم ينبهوا ولم يبشروا ولم ينذروا فى مدى طويل بعد قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا ﴾ فقد جاءهم ـ الآن ـ بشير ونذير ، ثم يذكرهم أن الله لا يعجزه شيء ؛ لا يعجزه أن يرسل رسولًا من الأميِّين ولا يعجزه كذلك أن يأخذ أهل الكتاب بما يكسبون .

وتنهى هذه الجولة مع أهل الكتاب ، فتكشف انحرافاتهم عن دين الله الصحيح الذى جاءتهم به رسلهم من قبل . وتقرر حقيقة الاعتقاد الذى يرضاه الله من المؤمنين ، وتبطل حجتهم فى موقفهم من النبى الأمى ؛ وتأخذ عليهم الطريق فى الاعتذار يوم الدين .

وبهذا كله تدعوهم إلى الهدى من ناحية ؛ وتضعف تأثير كيدهم فى الصف المسلم من ناحية أخرى . وتنير الطريق للجماعة المسلمة ولطلاب الهدى جميعاً .. إلى الصراط المستقيم .

وتستعرض الآيات الموقف الأخير لبنى إسرائيل مع رسولهم موسى ﷺ على أبواب الأرض المقدسة التى وعدهم الله ؛ وموقفهم كذلك من ميثاق ربهم معهم ؛ وكيف نقضوه ؛ وكيف كان جزاؤهم على نقض الميثاق ، فلقد جربهم فى مواطن كثيرة .. ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة . أرض الميعاد التى من أجلها خرجوا . الأرض التى وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكاً ، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا فى رعاية الله وقيادته ..

لقد جربهم فحق له أن يشفق ، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة ، فيحشد فيه أجل النعم وأكبر البشريات ، وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات ؛ نعمة الله ووعده الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء ويجعلهم ملوكاً . وإيتاءه لهم بهذا وذلك ما لم يؤت أحداً من العالمين حتى ذلك التاريخ والأرض المقدسة التى هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعد الله. فهى إذن يقين وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده . وهذا وعده الذى هم عليه قادمون .. والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين ولكن إسرائيل ، هى إسرائيل !! الجبن والنكوص على الأعقاب ونقض الميثاق .

فهم يريدون نصراً رخيصاً ، لا ثمن له ، ولا جهد فيه . نصراً مريحاً يتنزل عليهم تنزل المنّ والسلوى ، ولكن تكاليف النصر ليست كما تريدها يهود ! وهى فارغة القلوب من الإيمان ! وهنا تبرز قيمة الإيمان بالله ، والخوف منه ، فهذان رجلان من الذين يخافون الله ، ينشىء لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين ! ويرزقهما شجاعة فى وجه الخطر الموهوم !

ويقول صاحب الظلال : « وهذان يشهدان بقولتهما ﴿ ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ بقيمة الإيمان فى ساعة الشدة ؛ وقيمة الخوف

من الله فى مواطن الخوف من الناس . فالله ـ سبحانه ـ لا يجمع فى قلب عبد بين مخافتين : مخافته ـ جل جلاله ـ ومخافة الناس .. والذى يخاف الله لا يخاف أحداً بعده ؛ ولا يخاف شيئاً سواه » .

وتعلمنا هذه المقالة قاعدة فى علم القلوب وفى علم الحروب .. أقدموا واقتحموا . فمتى دخلتم على القوم فى عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم ؛ وشعروا بالهزيمة فى أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم ..

ويقول صاحب المنار: « قوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ أى :بنصر الله وتأييده لكم إذا أطعتم أمره ، وصدقتم وعده ، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى وعليكم بعد أن تعلموا ما يدخل فى طاقتكم من طاعة ربكم ، أن تكلوا أمركم إليه وتثقوا به ، فيما لا يصل إليه كسبكم ، فإن التوكل إنما يكون بعد بذل الوسع ، فى مراعاة السنة وامتثال الأمر إن كنتم مؤمنين بأن ما وعدكم ربكم على لسان نبيكم حق ، وأنه قادر على الوفاء لكم بوعده إذا أنتم قمتم بما يجب عليكم من طاعته وشكره ، والوفاء بميثاقه وعهده » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن دين الإسلام عام للبشرية كلها ، ومنهجه هو أكمل المناهج وأصلحها لحاضر البشرية ومستقبلها .

٢ ـ أن نتعلم من هذه الآيات رفض الذل والظلم ومقاومة ذلك بكل وسيلة متاحة مهما بلغت التضحيات ؛ لأن ذلك مطلب شرعى فى كل دين .

٣ ـ أن رفض الانصياع للحق ولما أمر الله به بعصيان الرسول ﷺ قد تكون عقوبته فى الدنيا فضلا عن العقوبة فى الآخرة ، كما عوقب بنو إسرائيل بالتيه وتحريم الأرض المقدسة عليهم أربعين سنة كاملة لم يستطيعوا دخولها .

٤ ـ أن الدخول فى العمل والمبادرة إليه هو الذى يكسر حدة الخوف والقعود عن العمل الصالح ، وقد طالبنا الله تعالى بالمبادرة إلى فعل الخير فى قوله : ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ (البقرة ١٤٨) .

٥ ـ روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « بادروا بالأعمال سَبعاً ، هل تنتظرون إلا فقراً مُنسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمَرّ » .

٦ ـ الدخول فى العمل ، والأخذ بكافة الأسباب مع التوكل على الله هو الكفيل بالنجاح والفلاح وبلوغ الغايات .

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ
أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ
يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ
﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ ۚ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ
قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ
لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَٰسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ
رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ
مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ
لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾
فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى
سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا
ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾
١١٢

معانى الكلمات :

فافرق : افصل بحكمك .

يتيهون فى الأرض : يسيرون فيها متحيرين ضالين . **فلا تأس** : فلا تحزن . **نبأ** : خبر .

ابنى آدم : هابيل وقابيل . **قرباناً** : ما يتُقرب به من البر إلى الله تعالى .

بسطت إلى يدك : بطشت بى .

أن تبوء بإثمى : أن ترجع بذنب قتلى إذا قتلتنى . **إثمك** : ذنبك السابق المانع من قبول قربانك . **سوءة أخية** : جثمانه وعورته .

طوعت له نفسه : سهلت له .

يوارى : يخفى ويدفن .

يا ويلتا : كلمة جزع وتحسر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان مشروعية التقرب إلى الله تعالى بما يحب أن يتقرب به إليه تعالى .

٢ ـ بيان أول من سن جريمة القتل وهو قابيل ولذا ورد : « ما من نفس تقتل نفساً ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل ذلك بأنه أول من سن القتل » .

٣ ـ بيان عظم جريمة الحسد وما يترتب عليها من الآثار السيئة .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات تأتى نهاية المطاف بموسى عليه السلام نهاية الجهد الجهيد ، والسفر الطويل ، واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بنى إسرائيل ! فهاهم ينكصون عن الأرض المقدسة ، وهو معهم على أبوابها ، وينكثون عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق ، فيدعو الله دعوة فيها الألم وفيها الالتجاء وفيها الاستسلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ ، ويقول صاحب الظلال رحمه الله : « هذا هو أدب النبى ، وهذه هى خطة المؤمن . وهذه هى الآصرة التى يجتمع عليها أو يتفرق المؤمنون لا جنس . لا نسب . لا قوم . لا

لغه . لا تاريخ . ولا وشيجة من كل وشائج الأرض إذا انقطعت وشيجة العقيدة ، وإذا اختلف المنهج والطريق ».

واستجاب الله لنبيه ، وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين ، وحرم عليهم الأرض المقدسة التى كتبها لهم ، وتركهم فى التيه أربعين سنة .

يقول صاحب الظلال : « ولقد وعى المسلمون هذا الدرس ـ مما قصه الله عليهم من القصص ـ فحين واجهوا الشدة وهم قلة أمام نفير قريش فى غزوة بدر ، قالوا لنبيهم ﷺ : إذن لا نقول لك يارسول الله ماقاله بنو إسرائيل لنبيهم : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ لكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا فإننا معكما مقاتلون .. وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآنى فى التربية بالقصص عامة؛وبعض جوانب حكمة الله فى تفصيل قصص بنى إسرائيل ..».

ثم ينتقل السياق ليأخذ فى بيان بعض الأحكام التشريعية الأساسية فى الحياة البشرية وهى الأحكام المتعلقة بحماية النفس والحياة فى المجتمع المسلم المحكوم بمنهج الله وشريعته ويقدم أحد النماذج لطبيعة الشر والعدوان بين البشر ، ونموذجاً كذلك للعدوان الصارخ الذى لا مبرر له .

ويقدم كذلك نموذجاً لطبيعة الخير والسماحة ، ويرسم الجريمة التى يرتكبها الشر ، والعدوان الصارخ الذى يثير الضمير ؛ ويثير الشعور بالحاجة الملحة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل ، تكف النموذج الشرير المعتدى عن الاعتداء ؛ وتخوفه وتردعه بالتخويف عن الإقدام على الجريمة ، فإذا ارتكبها ـ على الرغم من ذلك ـ وجد الجزاء العادل ، المكافئ للفعلة المنكرة . كما تصون النموذج الطيب الخير ، وتحفظ حرمه وتصون دمه .

وهذه القصة هى قصة ابنى آدم هابيل وقابيل ، ويمكن أن نلخص القصة فى صورتها القرآنية المحكمة وهى كما يلى: « كان الرجلان أخوين ، وقدم كل منهما قربانا إلى الله ، فتقبل الله قربان أحد الأخوين لتقواه وإخلاصه ، ولم يتقبل قربان الآخر لفقده التقوى والإخلاص ، عندئذ قال الذى لم يتقبل قربانه لأخيه الذى تقبل الله قربانه : ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ حسداً له وحقداً عليه ، فرد عليه أخوه بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أى راجع تقواك وإخلاصك حتى يتقبل الله منك ، وأما تهديدك لى بالقتل فأقول لك فيه : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى ﴾ وهذا ليس من حقك : ﴿ مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ لأن هذا ليس من صفتى ، فأنا أخاف الله سبحانه أن يرانى سافكاً للدم .

وأكد الذى هُدِّد بالقتل لأخيه أن القاتل ينال عقاب الله فى الآخرة على القتل وعلى معصية الله بممارسة الظلم والقتل والحسد والبغى ، وكل ذلك جزاؤه عند الله النار .

وعلى الرغم من هذه النصائح فإن العازم على قتل أخيه لم يتعظ ، بل طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح بهذه الجريمة من الخاسرين فى الدنيا بفقده أخاه وأقرب الناس إليه ، وفى الآخرة بما سينال من عذاب الله سبحانه .

وكانت هذه أول جريمة قتل كما يوحى بذلك سياق النص القرآنى بدليل أن الإنسان لم يكن يعرف كيف يدفن ميته ـ عندئذ ـ بعث الله غراباً يبحث فى الأرض ويحفر فيها ، فتعلم القاتل من ذلك أن يحفر لأخيه حفرة يواريه فيها ففعل وأدرك أنه جاهل غافل فأصبح من النادمين .

يقول صاحب المنار : « ومعنى الجملة : واتل أيها الرسول على أهل الكتاب وسائر الناس ذلك النبأ العظيم ـ نبأ ابنى آدم ـ تلاوة متلبسة بالحق مظهرة له ، بأن تذكره كما وقع ، مبينا ما فيه من الحكمة والكشف عن غريزة البشر وهو ما جبلوا عليه من التباين والاختلاف الذى يفضى إلى التحاسد والبغى والقتل ، ليعلموا حكمة الله فيما شرعه فى الدنيا من عقاب الباغين من الأفراد والجماعات والشعوب والقبائل ، وكون هذا البغى من اليهود على رسول الله والمؤمنين ليس من أمر دينهم ، وإنما هو من حسدهم وبغيهم ، فهم فى هذا كابنى آدم إذْ حسد شرهما خيرهما فبغى عليه فقتله ، وكانت عاقبة ذلك ما بينته هذه الآيات ».

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ قبول الأعمال الصالحة يتوقف على الإخلاص فيها فالله تعالى هو المقصد فى كل قول أو عمل .

٢ ـ أن نعلم علم اليقين أن ما أصابنا من نعم لم يكن ليخطئنا أبداً ، وأن ما أخطأنا منها لم يكن ليصيبنا أبداً ، فذلك هو الإيمان بالقضاء والقدر ، وهو فى الوقت نفسه الذى يباعد بيننا وبين أن نحسد الآخرين على ما آتاهم الله من فضله .

٣ ـ علينا أن ندعو الله للمُنعَم عليه أن يزيده الله من نعمه وأن يوفقه فى التعامل مع هذه النعمة بما يرضى الله تبارك وتعالى ، فإن هذا الدعاء مفتاح كل خير .

٤ ـ على من حُرِمَ من نعمة ورأى غيره قد أعطيها أن يعلم أن المنعم سبحانه له فى ذلك حكمة ، فليس من الضرورة أن يكون صاحب النعمة أفضل عند الله ممن حرم هذه النعمة وفى ذلك رضا لله تعالى ورضا للنفس يحول بينها وبين الوقوع فى نار الحسد والحقد .

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ
نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ
جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا
جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ
فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ
لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ
لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾
١١٣

معانى الكلمات :

بغير نفس : بغير قتل نفس يوجب القصاص .

أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف : أى تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى .

ينفوا من الأرض : يُبعدوا أو يسجنوا .

خزى : ذل وفضيحة وعقوبة .

ابتغوا إليه الوسيلة : واطلبوا القربى إلى الله بفعل الطاعات وترك المعاصى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان حكم الحرابة وحقيقتها ورأى الفقهاء فيها .

٢ ـ بيان عظم عفو الله ورحمته بعباده بمغفرته لمن تاب ورحمته له .

٣ ـ وجوب تقوى الله عز وجل وطلب القربى إليه والجهاد فى سبيله .

٤ ـ مشروعية التوسل إلى الله تعالى بالإيمان وصالح الأعمال .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يلتقط السياق الآثار العميقة التى تتركها جريمة القتل فى النفس ، ليجعل منها ركيزة شعورية للتشريع الذى فُرض لتلافى الجريمة فى نفس المجرم ؛ أو للقصاص العادل إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القصاص التى تنتظره . من أجل ذلك جعل الله جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة ، تعدل جريمة قتل الناس جميعاً ، وجعل العمل على دفع القتل عن نفس واحدة عملاً عظيماً يعدل إنقاذ الناس جميعاً ،وكتب ذلك على بنى إسرائيل فيما شرع لهم من شريعة .

ويقول صاحب الظلال : « إن قتل نفس واحدة ـ فى غير قصاص لقتل ، وفى غير دفع فساد فى الأرض ـ يعدل قتل الناس جميعاً ، لأن كل نفس ككل نفس ؛ وحق الحياة واحد ثابت لكل نفس . فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته ؛ الحق الذى تشترك فيه كل النفوس . كذلك دفع القتل عن نفس ، واستحياؤها بهذا الدفع ـ سواء كان بالدفاع عنها فى حالة حياتها أو بالقصاص لها فى حالة الاعتداء عليها لمنع وقوع القتل على نفس أخرى ـ هو استحياء للنفوس جميعاً ؛ لأنه صيانة لحق الحياة الذى تشترك فيه النفوس جميعاً .

ويستطرد السياق ليقرر عقوبة الحرابة ، وحدود هذه الجريمة التى ورد فيها هذا النص ، هى الخروج على الإمام المسلم الذى يحكم بشريعة الله ، والتجمع فى شكل عصابة ، خارجة على سلطان هذا الإمام ، تروع أهل دار الإسلام؛ وتعتدى على أرواحهم وأموالهم وحرماتهم . ويشترط بعض الفقهاء أن يكون ذلك خارج المصر بعيداً عن مدى سلطان الإمام ويرى بعضهم أن مجرد تجمع مثل هذه العصابة ، وأخذها فى الاعتداء على أهل دار الإسلام بالقوة ، يجعل النص منطبقاً عليها . سواء خارج المصر أو داخله . وهذا هو الأقرب للواقع العملى ومجابهته بما يستحقه.

وهؤلاء الخارجون على شريعة الله إنما يحاربون الله ورسوله ، وجزاء هؤلاء الذين يروعون عباد الله فى دار الإسلام ، ويعتدون على أموالهم وأرواحهم وحرماتهم .. أن يقتلوا تقتيلاً عادياً . أو أن يصلبوا حتى يموتوا (وبعض الفقهاء يفسر النص بأنه الصلب بعد القتل للترويع والإرهاب) أو أن تقطع أيديهم اليمنى مع أرجلهم اليسرى .. من خلاف .

ويروى الفقهاء فى مذهب أبى حنيفة والشافعى وأحمد أن العقوبات مرتبة على حسب الجناية التى وقعت فمن قتل ولم يأخذ مالاً قتل ، ومن أخذ المال ولم يقتل قطع ، ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب ومن أخاف السبيل ولكنه لم يقتل ولم يأخذ مالاً نفى .

يقول صاحب الظلال : « فى قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فالجزاء الذى يلقونه إذن فى الدنيا لا يُسقط عنهم العذاب فى الآخرة ، ولا يطهرهم من دنس الجريمة كبعض الحدود الأخرى . وهذا كذلك تغليظ للعقوبة وتبشيع للجريمة . ذلك أن الجماعة المسلمة فى دار الإسلام يجب أن تعيش آمنة . وذلك أن السلطة المسلمة القائمة على شريعة الله يجب أن تكون مطاعة . فهذا هو الوسط الخير الرفيع الذى يجب توفير الضمانات كلها لازدهاره .. وهذا هو النظام العادل الكامل الذى يجب أن يصان من المساس به ..

فإذا ارتدع هؤلاء الخارجون المفسدون عن غيهم وفسادهم ، نتيجة استشعارهم نكارة الجريمة ، وتوبة منهم إلى الله ورجوعاً إلى طريقه المستقيم . وهم ما يزالون فى قوتهم ، لم تنلهم يد السلطان ـ سقطت جريمتهم وعقوبتها معاً ، ولم يعد للسلطان عليهم من سبيل ، وكان الله غفورًا لهم رحيما بهم فى الحساب الأخير . ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ والحكمة واضحة فى إسقاط الجريمة والعقوبة فى هذه الحالة عنهم من ناحيتين :

الأولى : تقدير توبتهم ـ وهم يملكون العدوان ـ واعتبارها دليل صلاح واهتداء ..

الثانية : تشجيعهم على التوبة ، وتوفير مؤنة الجهد فى قتالهم من أيسر سبيل » .

ولا يكاد ينتهى السياق القرآنى من الترويع بالعقوبة حتى يأخذ طريقه إلى القلوب والضمائر والأرواح يستجيش فيها مشاعر التقوى ؛ ويحثها على ابتغاء الوسيلة إلى الله والجهاد فى سبيله

رجاء الفلاح ، ويحذرها عاقبة الكفر به ، ويصور لها مصائر الكفار فى الآخرة تصويراً موحيًا بالخشية والاعتبار .

ويقول صاحب الظلال : « إن هذا المنهج المتكامل يأخذ النفس البشرية من أقطارها جميعاً ؛ ويخاطب الكينونة البشرية من مداخلها جميعاً ؛ ويلمس أوتارها الحية كلها وهو يدفعها إلى الطاعة ويصدها عن المعصية .. إن الهدف الأول للمنهج هو تقويم النفس البشرية وكفها عن الانحراف . والعقوبة وسيلة من الوسائل الكثيرة . وليست العقوبة غاية ، كما أنها ليست الوسيلة الوحيدة .

وهنا نرى أنه يبدأ هذا الشوط بنبأ ابنى آدم ـ بكل ما فيه من موجبات ـ ثم يثنى بالعقوبة التى تخلع القلوب . ثم يعقب بالدعوة إلى تقوى الله وخشيته والخوف من عقابه . ومع الدعوة التصوير الرعيب للعقاب ..

ويكون الخوف والرجاء ـ أى الوسيلة ـ هما السبيل للفلاح للمؤمنين والتائبين ، على الجانب الآخر المشهد الشاخص للكفار الذين يضرب لهم ما فوق الخيال وهو أنهم لو ملكوا ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا من عذاب الله يوم القيامة ما تقبل الله منهم ولهم عذاب دائم ومقيم فى النار هم فيها خالدون ».

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ فساد بنى إسرائيل لم ينشأ عن الجهل وقلة العلم بل كان اتباعاً للأهواء وجرياً وراء عارض الدنيا ، فلذا غضب الله عليهم ولعنهم ؛ لأنهم عالمون .

٢ ـ بيان حكم الحرابة وهى : خروج جماعة اثنان فأكثر ويكون بأيديهما سلاح ولهم شوكة ، خروجهم بعيداً عن المدن والقرى ، يشنون هجمات على المسلمين فيقتلون ويسلبون ويعتدون على الأعراض . هذه هى الحرابة وأهلها يُقال لهم : المحاربون وحكمهم ما ورد فى الآيات .

٣ ـ وجوب تقوى الله عز وجل وطلب القربة إليه والجهاد فى سبيله .

٤ ـ مشروعية التوسل إلى الله تعالى بالإيمان والأعمال الصالحة {قصة الثلاثة أصحاب الغار}.

٥ ـ لا فدية يوم القيامة ولا شفاعة تنفع الكافرين فيخرجون بها من النار .

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى الْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

١١٤

معانى الكلمات :

نكالا : عقوبة تمنع الإنسان من أن يعود إلى فعل ما يعاقب عليه . **بأفواههم** : بألسنتهم .

سماعون للكذب : يسمعون كلامك ، ثم يمسخونه ليكذبوا عليك فيه .

سماعون لقوم آخرين : يسمعون كلامك للتجسس لآخرين . **يحرفون الكلم** : يبدلونه أو يؤولونه بالباطل . **فتنته** : ضلاله وكفره أو إهلاكه . **خزى** : افتضاح وذل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم الحكمة من تشريع حد السرقة وضرورته لأمن وسلامة المجتمع .

٢ ـ أن نعلم أن باب التوبة مفتوح إذا كانت خالصة بشروطها الشرعية .

٣ ـ أن نبين طبائع اليهود والمنافقين من سماع للكذب وتحريف لكلام الله .

٤ ـ أن نوقن بأن تطبيق حدود الله على عباد الله هو الحل الأمثل لمقاومة الجريمة والعدوان، والسبيل الوحيد لاستقرار وأمن المجتمع .

المحتوى التربوى :

هذا المقطع امتداد للمقطع السابق من حيث إنه يأمر بحسم مادة الفساد فى الأرض بجهاد الكافرين وقطع يد السارق والسارقة ؛ مجازاة لهما على صنيعهما السيئ فى أخذ أموال الناس بأيديهم، فالمجتمع المسلم يوفر لأهل دار الإسلام ـ على اختلاف عقائدهم ـ ما يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية ، إنه يوفر لهم ضمانات العيش والكفاية . وضمانات التربية والتقويم . وضمانات العدالة والتوزيع .

وفى الوقت ذاته يجعل كل ملكية فردية فيه تنبت من حلال ؛ ويجعل الملكية الفردية وظيفة اجتماعية تنفع المجتمع ولا تؤذيه . ومن أجل هذا كله يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية ، فمن حقه إذن أن يشدد فى عقوبة السرقة ، والاعتداء على الملكية الفردية ، والاعتداء على أمن الجماعة .. ومع تشديده فهو يدرأ الحد بالشبهة ؛ ويوفر الضمانات كاملة للمتهم حتى لا يؤخذ بغير الدليل الثابت .

والسرقة هى أخذ مال الغير المحرّز ، خفية .. فلابد أن يكون المأخوذ مالاً مقوماً .. والحد المتفق عليه تقريباً بين فقهاء المسلمين الذى يعد أخذه من حرزه خفية سرقة هو ما يعادل ربع دينار .. ولابد أن يكون هذا المال محرزًا وأن يأخذه السارق من حرّزه ، ويخرج به عنه ، فلا قطع مثلاً على المؤتمن على مال إذا سرقه . والخادم المأذون له بدخول البيت لا يقطع فيما يسرق ؛ لأنه ليس محرّزاً منه ولا على المستعير إذا جحد العارية ، ولا على الثمار فى الحقل حتى يؤويها الجرين ، ولا على المال خارج البيت أو الصندوق المعد لصيانته وهكذا ، ولابد أن يكون هذا المال المحرّز للغير ، فلا قطع حين يسرق الشريك من مال شريكه ، لأن له فيه شركة فليس خالصاً للغير ، والذى يسرق من بيت مال المسلمين لا يقطع ، لأن له نصيباً فيه فليس خالصاً للغير كذلك ، والعقوبة فى مثل هذه الحالات ليست القطع ، وإنما التعزير (والتعزير عقوبة دون الحد ، بالجلد أو بالحبس أو بالتوبيخ أو بالموعظة فى بعض الحالات التى يناسبها هذا حسب رأى القاضى والظروف المحيطة) .

والقطع يكون لليد اليمنى إلى الرسغ ، فإذا عاد كان القطع فى الرجل اليسرى إلى الكعب وهذا هو القدر المتفق عليه فى القطع ، ثم تختلف بعد ذلك آراء الفقهاء عند الثالثة والرابعة .

والشبهة تدرأ الحد ، فشبهة الجوع والحاجة تدرأ الحد ، وشبهة الشركة فى المال تدرأ الحد ، ورجوع المعترف فى اعترافه ـ إذا لم يكن هناك شهود ـ شبهة تدرأ الحد ، ونكول الشهود شبهة .

يقول صاحب الظلال : « وعلة فرض عقوبة القطع للسرقة أن السارق حينما يفكر فى السرقة إنما يفكر فى أن يزيد كسبه بكسب غيره . فهو يستصغر ما يكسبه عن طريق الحلال ، ويريد أن ينميه من طريق الحرام ، وهو لا يكتفى بثمرة عمله ، فيطمع فى ثمرة عمل غيره ، وهو يفعل ذلك ليزيد من قدرته على الإنفاق أو الظهور ، أو ليرتاح من عناء الكد والعمل . أو ليأمن على مستقبله .

فالدافع الذى يدفع إلى السرقة ويرجع إلى هذه الاعتبارات هو زيادة الكسب أو زيادة الثراء ، وقد حاربت الشريعة هذا الدافع فى نفس الإنسان بتقرير عقوبة القطع ؛ لأن قطع اليد أو الرجل يؤدى إلى نقص الكسب ، إذ اليد والرجل كلاهما أداة العمل أيا كان . ونقص الكسب يؤدى إلى نقص الثراء. وهذا يؤدى إلى نقص القدرة على الإنفاق وعلى الظهور ، ويدعو إلى شدة الكدح وكثرة العمل ، والتخوف الشديد على المستقبل .

فالشريعة الإسلامية بتقريرها عقوبة القطع دفعت العوامل النفسية التى تدعو لارتكاب الجريمة بعوامل نفسية مضادة تصرف عن جريمة السرقة ، فإذا تغلبت العوامل النفسية الداعية ، وارتكب الإنسان الجريمة مرة كان فى العقوبة والمرارة التى تصيبه منه ما يغلب العوامل النفسية الصارفة ، فلا يعود للجريمة مرة ثانية .

وعلى ذكر الجريمة والعقاب ، يذكر التوبة والمغفرة ، ويعقب السياق القرآنى بالمبدأ الكلى الذى تقوم عليه شريعة الجزاء فى الدنيا والآخرة . فخالق هذا الكون ومالكه هو صاحب المشيئة العليا فيه وصاحب السلطان الكلى فى مصائره ، هو الذى يُقرر مصائره ومصائر من فيه ، كما أنه هو الذى يُشرع للناس فى حياتهم ، ثم يجزيهم على عملهم فى دنياهم وآخرتهم .

ويستطرد السياق إلى الحديث عن أفعال اليهود والنصارى التى كانت تحزن الرسول ﷺ ، والتى منها المسارعة فى الكفر ، وهذه الآيات تشى بأنها مما نزلت فى السنوات الأولى فى الهجرة ؛ حيث كان اليهود ما يزالون فى المدينة ـ أى قبل غزوة الأحزاب على الأقل ـ وقبل التنكيل ببنى قريظة إن لم يكن قبل ذلك ، أيام أن كان هناك بنو النضير ، وبنو قُينقاع ، وأولاهما أجليت بعد أحد ، والثانية أجليت قبلها ـ ففى هذه الفترة كان اليهود يقومون بمناوراتهم هذه ، وكان المنافقون يأرزون إليهم كما تأرز الحية إلى الجحر ! وكان هؤلاء يسارعون فى الكفر ؛ لو قال المنافقون بأفواههم : آمنا ، وكان فعلهم هذا يحزن الرسول ﷺ ويؤذيه .

ويقول صاحب الأساس : « فى هذه الآيات نهىٌ لرسول الله ﷺ أن يحزن لمسارعة نوعين من الناس فى الكفر ، المنافقين واليهود ، ووصف لهؤلاء ، ووعيد لهم بالذلة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، وقطع رجاء المؤمنين من إيمانهم ، وهذه قضية مهمة ، إذ ما السبب الذى استحق به هؤلاء عقوبة ألا يُطهر الله قلوبهم ؟ أمّا المنافقون فسبب ذلك سماعهم للكذب سماع قبول ، وتجسسهم لحساب أعداء الله ، وأما اليهود فسبب ذلك تحريفهم كتاب الله ، وإرادتهم أن يكونوا قوّاماً على دين محمّد ﷺ بدلاً من الإسلام له ، وسماعهم للكذب ، وأكلهم المال الحرام » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ضرورة المحافظة على أمن المجتمع والمحافظة على أموال الناس وأعراضهم ، وأن العدوان على شىء من ذلك يوقع على المعتدى عقاباً دنيوياً بقطع يده إذا بلغ قدر المسروق نصاباً معيناً ، وعقاباً أخروياً عند الله تعالى .

٢ ـ نتعلم من هذه الآيات الكريمة أن باب التوبة مفتوح ، وأن الإسلام يُرحب بالتوبة ، والله سبحانه يعفو ويغفر بشرط أن تكون التوبة نصوحاً خالصة لله تعالى مصحوبة بالندم ورد المظالم إلى أهلها .

٣ ـ تطبيق حدود الله على عباد الله هو الحل الأمثل لمقاومة الجريمة والعدوان وترويع الآمنين، وهو السبيل لاستقرار العدل والأمن فى المجتمع .

٤ ـ حرمة سماع الكذب لغير حاجة تدعو إلى ذلك .

٥ ـ حرمة تحريف الكلام وتشويهه ، والحرص على ودقة النقل من وإلى الآخرين .

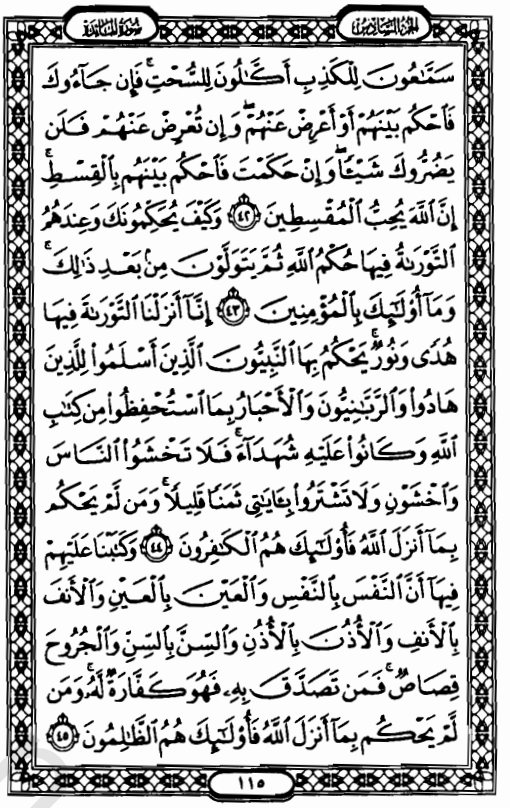
سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ
فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن
يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ
ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ
وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ
هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ
ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ
وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ
فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ
بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ
قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن
لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾
١١٥

معانى الكلمات :

أكالون للسحت : يأكلون ـ كثيراً ـ المال الحرام . « الرشوة » . **بالقسط** : بالعدل .

يتولون من بعد ذلك : يعرضون .

الربانيون : عُبّاد اليهود أو العلماء والفقهاء.

الأحبار : علماء اليهود . **فمن تصدق به** : فمن عفا عنه وتصدق عليه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان مقتضى الإيمان الصحيح وواجب المسلمين فى تبيان كتاب الله للناس للحكم بما فيه ، وإلا فليسوا بمؤمنين .

٢ ـ بيان حرمة الكذب والسحت « الرشوة » وأثرها السيئ على الفرد والمجتمع ووجوب تحريمهما .

٣ ـ بيان أهمية القصاص فى التشريع الإسلامى لسلامة الفرد وأمن المجتمع .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات بعد أن وجه الله عز وجل نبيه فى شأن هؤلاء المسارعين بالكفر ، وفى شأن هؤلاء المتآمرين : لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، فهم يسلكون سبيل الفتنة ، وهم واقعون فيها ، وليس لك من الأمر شىء ، وما أنت بمستطيع أن تدفع عنهم الفتنة وقد سلكوا طريقها، ولجوا فيها فلا عليك منهم ، ولا يحزنك كفرهم ، ولا تحفل بأمرهم . فهو أمر مقضى فيه .

ثم يمضى فى بيان حال القوم ، وما انتهوا إليه من فساد فى الخلق والسلوك ، قبل أن يبين لرسول الله ﷺ كيف يتعامل معهم إذا جاؤوا إليه متحاكمين ، فكرر أنهم سماعون للكذب مما يشى بأن هذه أصبحت خصلة لهم ، تهش نفوسهم لسماع الكذب والباطل ، وتنقبض لسماع الحق والصدق ، وهذه طبيعة القلوب حين تفسد ، وعادة الأرواح حين تنطمس .

وهؤلاء : سماعون للكذب . أكالون للسحت ؛ والسحت كل مال حرام ، والربا والرشوة وثمن الكلمة والفتوى ! فى مقدمة ما كانوا يأكلون ، وفى مقدمة ما تأكله المجتمعات التى تنحرف عن منهج الله فى كل زمان ! وسمى الحرام سحتاً ، لأنه يقطع البركة ويمحقها ، وما أشد انقطاع البركة وزوالها من المجتمعات المنحرفة ، كما رأينا ذلك بأعيننا فى كل مجتمع شارد عن منهج الله

وشريعة الله ، ويجعل الله الأمر للرسول بالخيار فى أمرهم إذا جاؤوه يطلبون حكمه ـ فإن شاء أعرض عنهم ـ ولن يضروه شيئاً ـ وإن شاء حكم بينهم ، فإذا اختار أن يحكم حكم بينهم بالقسط ، غير متأثر بأهوائهم ، وغير متأثر كذلك بمسارعتهم فى الكفر ومؤامراتهم ومناوراتهم .

وقد عقب السياق بسؤال استنكارى على موقف يهود فهى كبيرة مستنكرة أن يحكموا رسول الله ﷺ فيحكم بشريعة الله وحكم الله ، وعندهم ـ إلى جانب هذا ـ التوراة فيها شريعة الله وحكمه ، فيتطابق حكم رسول الله ﷺ وما عندهم فى التوراة مما جاء القرآن مصدقاً له ومهيمناً عليه ، ثم من بعد ذلك يتولون ويعرضون ، سواء كان التولى بعدم التزام الحكم ؛ أو بعدم الرضا به ، ولا يكتفى السياق بالاستنكار ، ولكنه يقرر الحكم الإسلامى فى مثل هذا الموقف : ﴿ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ذلك كان حكم الله على المحكومين الذين لا يقبلون حكم شريعة الله فى حياتهم ، فالآن يجىء حكمه ـ تعالى ـ على الحاكمين ، الذين لا يحكمون بما أنزل الله . الحكم الذى تلتقى جميع الديانات التى جاءت من عند الله عليه ويبدأ بالتوراة ، وبيان ما فيها من هدى ونور .

يقول صاحب الظلال:« لقد جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة . منهج حياة واقعية. جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية ، وتنظيمها ، وتوجيهها ، وصيانتها . ولم يجئ دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة فى الضمير ؛ ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدى فى الهيكل والمحراب.والحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد؛ يملك السلطان على الضمائر والسرائر ، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك . ويجزى الناس وفق شرائعه فى الحياة الدنيا ، كما يجزيهم وفق حسابه فى الحياة الآخرة .

فالتوراة ـ كما أنزلها الله ـ كتاب الله الذى جاء لهداية بنى إسرائيل ، وإنارة طريقهم إلى الله . وطريقهم فى الحياة ، وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد . وتحمل شعائر تعبدية شتى ، وتحمل كذلك شريعة ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾.

وقبل أن ينتهى السياق من الحديث عن التوراة ، يلتفت إلى الجماعة المسلمة ، ليوجهها فى شأن الحكم بكتاب الله عامة ، وما قد يعترض هذا الحكم من شهوات الناس وعنادهم وحربهم وكفاحهم ، وواجب كل من استحفظ على كتاب الله فى مثل هذا الموقف ، وجزاء نكوله أو مخالفته ، وعلم الله ـ سبحانه ـ أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجبهات ، وأنه لابد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة ؛ وأن يصمدوا لها ، وأن يحتملوا تكاليفها فى النفس والمال ؛ لذا يناديهم ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ . ويقرر الأصل القاعدى فى دين الله كله وهو ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾.

وبعد بيان هذا الأصل ، يعود السياق لعرض نماذج من شريعة التوراة التى أنزلها الله ليحكم بها النبيون والربانيون والأحبار للذين هادوا ـ بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ ﴾ وقد استبقيت هذه الأحكام التى نزلت بها التوراة فى شريعة الإسلام ، وأصبحت جزءاً من شريعة المسلمين ، التى جاءت لتكون شريعة البشرية كلها إلى آخر الزمان، وإن كانت لا تطبق إلا فى دار الإسلام . لاعتبارات عملية بحتة ؛ حيث لا تملك السلطة المسلمة أن تطبقها فيما وراء حدود دار الإسلام ، وحيثما كان ذلك فى استطاعتها فهى مكلفة بتنفيذها وتطبيقها ، بحكم أن هذه الشريعة عامة للناس كافة ، للأزمان كافة ، كما أرادها الله ، وقد أضيف إليها فى الإسلام حكم آخر فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ .

ولم يكن ذلك فى شريعة التوراة . إذا كان القصاص حتماً ؛ لا تنازل فيه ، ولا تصدق به ، ومن ثم فلا كفارة .

ويقول صاحب الظلال : « إن هذا المبدأ العظيم ـ القصاص ـ الذى جاءت به شريعة الله هو الإعلان الحقيقى الكامل لميلاد « الإنسان » الإنسان الذى يستمتع كل فرد فيه بحق المساواة ، أولاً فى التحاكم إلى شريعة واحدة وقضاء واحد ، وثانياً فى المقاصة على أساس واحد وقيمة واحدة » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ نتعلم من الآيات الكريمة أن الذين يرغبون فى أن يتحاكموا إلى الحق والعدل ، ثم لا يقبلونه لا يمثلون إلا قيمة رخيصة فى المجتمع الإنسانى ، إذ لا ينبغى أن يميل أحد عن الحق والعدل ، ولن يستطيعوا أن يتحدوا الحق دائماً وإنما هى جولة زمنها ساعة ثم دولة الحق إلى قيام الساعة .

٢ ـ نتعلم كذلك أن الذين يكتمون شيئاً من كتاب الله أو يعطلونه ليسوا مؤمنين وإن زعموا الإيمان ؛ لأن مقتضى الإيمان أن يأتمر المؤمن بما أمر الله به ، وأن ينتهى عما نهى الله عنه .

٣ ـ نتعلم من الآيات أن من معانى « السُّحْت » الرشوة ، وهى من أخطر أمراض المجتمع ، وأجمع العلماء على أن الرشوة تخل بمروءة الراشى والمرتشى ، لأن هذا يأخذ ما ليس من حقه ، وذاك يعطى من لا يستحق ليأخذ ما ليس من حقه ، لذا فهى تخل بالدين والتدين إذ لا دين لمن لا مروءة له ، ولما قاله ﷺ : « كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به » وقال العلماء : « من السحت أن يأكل الرجل بجاهه » .

٤ ـ أن يعلم الدعاة إلى الله أن من سنة الله أن يكون الحكم بما أنزل الله له أعداء يواجهونه ويحاولون أن يعطلوه فى كل زمان ومكان ، وكذلك من سنته أن يصطفى من يدافع عن دينه، ويطالب بأن يكون الحكم لله ، ويضحون من أجل ذلك بالغالى والنفيس حتى ينالوا إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة .

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ
أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا
عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ
عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ
ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ
بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ
ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

معانى الكلمات :

قفينا على آثارهم : أتبعنا على آثار النبيين .

مهيمناً عليه : رقيباً أو شاهداً على ما سبقه .

عما جاءك : عادلاً عما جاءك .

شرعة ومنهاجاً : شريعة وطريقاً واضحاً فى الدين . **ليبلوكم** : ليختبركم وهو أعلم بأمركم . **أن يفتنوك** : يصرفوك ويصدوك بكيدهم . **أن يصيبهم** : أن يعاقبهم .

يوقنون : يعتقدون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان العلاقة بين الكتب السماوية من حيث وحدة المصدر واتفاق الغاية .

٢ ـ بيان عاقبة وحكم من لم يحكم بما أنزل الله .

٣ ـ بيان نعمة الله ورحمته على الأمة بتمام الرسالة الخاتمة .

٤ ـ أن نعرف ما الجاهلية لقول عمر بن الخطاب ﷺ :« ستنقض عُرى الإسلام عُروة ، عُروة إذا جاء فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية » .

المحتوى التربوى :

تستأنف هذه الآيات الحكم العام بأن : « من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » باطراده فيما بعد التوراة فقد أتى الله عيسى ابن مريم الإنجيل ، ليكون منهج حياة ، وشريعة حكم ، وقد جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، فاعتمد شريعتها ، وجعل الله فيه هدى ونوراً للمتقين ، وجعله منهج حياة وشريعة حكم لأهل الإنجيل أى إنه خاص بهم ، فليس رسالة عامة للبشر ، شأنه فى هذا شأن التوراة ، وشأن كل كتاب ، وكل رسالة وكل رسول ، قبل هذا الدين الأخير ـ ولكن ما طابق من شريعته التى هى شريعة التوراة حكم القرآن ، فهو من شريعة القرآن كما مر بنا فى شريعة القصاص .

وأهل الإنجيل إذن كانوا مطالبين أن يتحاكموا إلى الشريعة التى أقرها وصدقها الإنجيل من شريعة التوراة ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ فالقاعدة هى الحكم بما أنزل الله دون سواه وهم اليهود ،كذلك لن يكونوا على شىء حتى يقيموا التوراة والإنجيل ـ قبل الإسلام ـ

وما أنزل إليهم من ربهم ـ بعد الإسلام ـ فكله شريعة واحدة، هم ملزمون بها ، وشريعة الله الأخيرة هى الشريعة المعتمدة .

ثم تأتى الرسالة الأخيرة ، إنها الرسالة التى جاءت تعرض « الإسلام » فى صورته النهائية الأخيرة ؛ ليكون دين البشرية كلها ؛ ولتكون شريعته هى شريعة الناس جميعاً ؛ ولتهيمن على كل ما كان قبلها وتكون هى المرجع النهائى ؛ ولتقيم منهج الله لحياة البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، المنهج الذى تقوم عليه الحياة فى شتى شعبها ونشاطها ؛ والشريعة التى تعيش الحياة فى إطارها وتدور حول محورها ؛ وتستمد منها تصورها الاعتقادى ، ونظامها الاجتماعى ، وآداب سلوكها الفردى والجماعى .

وقد جاءت كذلك ليحكم بها ، لا لتعرف وتدرس ، وتتحول إلى ثقافة فى الكتب والدفاتر ! وقد جاءت لتُتبع بكل دقة ، فإما هذا وإما فهى الجاهلية والهوى ، ولا يشفع فى هذه المخالفة أن يقول أحد إنه يجمع بين الناس بالتساهل فى الدين ، فلو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة . إنما يريد أن تحكم شريعته ، ثم يكون من أمر الناس ما يكون .

ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يرد إلى القرآن ليفصل فيه ، ولا قيمة لآراء الرجال ما لم يكن لها أصل تستند إليه من هذا البيان الأخير من الله للبشر ، وتترتب على هذه الحقيقة مقتضياتها المباشرة : ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ .

يقول صاحب الظلال :

« لقد كمل هذا الدين ، وتمت به نعمة الله على المسلمين ، ورضيه الله لهم منهج حياة للناس أجمعين . ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شىء فيه أو تبديله ، ولا لترك شىء من حكمه إلى حكم آخر ، ولا لشىء من شريعته إلى شريعة أخرى . وقد علم الله حين رضيه للناس ، أنه يسع الناس جميعاً . وعلم الله حين رضيه مرجعاً أخيراً أنه يحقق الخير للناس جميعاً وأنه يسع حياة الناس جميعاً إلى يوم الدين ، وأى تعديل فى هذا المنهج ـ ودعك من العدول عنه ـ هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة يخرج صاحبه من هذا الدين . ولو قال باللسان ألف مرة : إنه من المسلمين !

وتؤكد الآيات أن أى محاولة للتساهل فى شىء من شريعة الله ، انحراف للبشرية عن منهج الله مهما كانت الأسباب ، وتنهى الآيات النبى ﷺ عن اتباع أهوائهم عما جاءه من الحق ، ثم يحذره من فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه ، ويهون على رسول الله ﷺ أمرهم إذا لم يعجبهم هذا الاستمساك الكامل بالصغيرة قبل الكبيرة فى هذه الشريعة ، ولا تجعل إعراضهم يفت فى عضدك أو يحولك عن موقفك .. فإنهم إنما يتولون ويعرضون ، لأن الله يريد أن يجزيهم على بعض ذنوبهم، فهم الذين سيصيبهم السوء بهذا الإعراض . لا أنت ولا شريعة الله ودينه ؛ ولا الصف المسلم المستمسك بدينه ، ثم إنها طبيعة البشر : « وإن كثيراً من الناس لفاسقون » فهم

يخرجون وينحرفون ، لأنهم هكذا ؛ ولا حيلة لك فى هذا الأمر ، ولا ذنب للشريعة ، ولا سبيل لاستقامتهم على الطريق .

وبذلك يغلق كل منافذ الشيطان ومداخله إلى النفس المؤمنة ؛ ويأخذ الطريق على كل حجة وكل ذريعة لترك شيء من أحكام هذه الشريعة ؛ لغرض من الأغراض ؛ فى ظرف من الظروف ثم يقفهم على مفرق الطريق ، فإنه إما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية . ولا وسط بين الطرفين ولا بديل ، حكم الله يقوم فى الأرض ، وشريعة الله تنفذ فى حياة الناس ، ومنهج الله يقود حياة البشر، أو أنه حكم الجاهلية وشريعة الهوى ، ومنهج العبودية فأيهما يريدون ؟

يقول صاحب الظلال : « إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص . فالجاهلية ـ كما يصفها الله ويحددها قرآنه ـ هى حكم البشر للبشر، لأنها هى عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض ألوهية الله ، والاعتراف فى مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله .

إن الجاهلية ليست فترة من الزمان ؛ ولكنها وضع من الأوضاع . هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم ، ويوجد غداً ، فيأخذ صفة الجاهلية ، المقابلة للإسلام ، والمناقضة للإسلام . والناس ـ فى أى زمان وفى أى مكان ـ إما أنهم يحكمون بشريعة الله ـ دون فتنة عن بعض منها ـ ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً ، فهم إذن فى دين الله . وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر ويقبلونها فهم إذن فى جاهلية » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن رحمة الله سبحانه بخلقه مستمرة عبر أجيال الزمان كله ، كلما مضى رسول كريم بعث الله على أثره رسولاً آخر يقفو أثره ، وكل واحد من الرسل والأنبياء بذل ما استطاع من جهد لنقل الناس من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى .

٢ ـ أن مواصلة العمل فى الدعوة إلى الله والتبليغ عنه ضرورة شرعية حيوية ، لا يُستطاع الوصول إلى الحق إلا من خلالها ، ولابد من الوصول إلى الحق بمعنى تجليته ودعوة الناس إليه .

٣ ـ دين الإسلام هو الذى حَرَّر الأديان السابقة من شبهات التحريف والتبديل والوهم والخرافة وعبادة الناس والأشياء واتخاذهم آلهة من دون الله .

٤ ـ لا يجوز للمسلمين أن يتركوا ما شرع الله لهم ؛ ليأخذوا بالقوانين الوضعية التى لا تتخذ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله أساساً وهى تشرع للناس ما يتعاملون به مع الله ومع الناس والأشياء ، فيما يتصل بالدنيا والآخرة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ
يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ
مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ
إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ
يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾
١١٧

معانى الكلمات :

أولياء : تؤاخونهم وتستنصرونهم.

مرض : شك ونفاق .

تخشى أن تصيبنا دائرة : نخاف حوادث الدهر وشروره .

بالفتح : بالنصر لرسوله ﷺ .

أو أمر من عنده : أو يهلكهم بأمر من عنده

جهد أيمانهم : مجتهدين فى الحلف بأغلظ الأيمان . **حبطت** : بطلت وضاع ثوابها .

أذلة على المؤمنين : رحماء بهم متواضعين .

أعزة على الكافرين : أشداء عليهم .

لومة لائم : اعتراض معترض .

الله واسع : كثير الفضل والكرم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان تحريم موالاة اليهود والنصارى من دون المؤمنين .

٢ ـ بيان الفرق بين الموالاة لليهود والنصارى وحسن معاملتهم .

٣ ـ أن نتخلق بصفات العصبة التى اختارها الله لنصرة دينه .

٤ ـ أن نعلم سمات الفئة الموالية لله ورسوله وللمؤمنين .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يربى القرآن وعى المسلم بحقيقة أعدائه ، وحقيقة المعركة التى يخوضها معهم ويخوضونها معه ، إنها معركة العقيدة فهى القضية القائمة بين المسلم وكل أعدائه ، وهم يعادونه لعقيدته ودينه ، قبل أى شىء آخر ، وهم يعادونه هذا العداء الذى لا يهدأ لأنهم هم فاسقون عن دين الله ، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على دين الله ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ فهذه هى طبيعة المعركة ، وهذه هى الدوافع الأصلية .

لذا ينهى الله عز وجل ـ الذين آمنوا أن تكون بينهم وبين اليهود والنصارى أى ولاية، والولاية تعنى التناصر والتحالف معهم . ولا تتعلق بمعنى اتباعهم فى دينهم . فبعيد جداً أن

يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى فى الدين . إنما هو ولاء التحالف والتناصر ، الذى كان يلتبس على المسلمين أمره ، فيحسبون أنه جائز لهم، بحكم ما كان واقعاً من تشابك المصالح والأواصر ، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام ، وفى أوائل العهد بقيام الإسلام فى المدينة ، حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله ، بعدما تبين عدم إمكانية قيام الولاء والتحالف والتناصر بين المسلمين واليهود فى المدينة .

يقول صاحب الظلال : « إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب ، ولكنه منهى عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم . وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقى مع طريق أهل الكتاب ، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه ، ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض فى حربه والكيد له ، وسذاجة أية سذاجة وغفلة أية غفلة ، أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين ! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين ، إذا كانت المعركة مع المسلمين !! » .

ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها ، فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم ، والفرد الذى يتولاهم من الصف المسلم ، يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف « الإسلام » وينضم إلى الصف الآخر : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ؛ وكان ظالماً لنفسه ولدين الله وللجماعة المسلمة ، وبسبب ظلمه هذا يدخله الله فى زمرة اليهود ، والنصارى الذين أعطاهم ولاءه ، ولا يهديه إلى الحق ، ولا يرده إلى الصف المسلم .

ويهدد القرآن المستنصرين بأعداء دينهم ، المتألبين عليهم ، المنافقين الذين لا يخلصون لله اعتقادهم ولا ولاءهم ولا اعتمادهم ، يهددهم برجاء الفتح أو أمر الله الذى يفصل فى الموقف أو يكشف المستور من النفاق .

وبعد أن ينتهى السياق من النداء الأول للذين آمنوا ، أن ينتهوا عن موالاة اليهود والنصارى، وأن يحذروا أن يصيروا منهم بالولاء لهم ، وأن يرتدوا بذلك عن الإسلام . وهم لا يشعرون أو لا يقصدون ـ يرسل بالنداء الثانى ، يهدد من يرتد منهم عن دينه ـ بهذا الولاء أو بسواه من الأسباب ـ بأنه ليس عند الله بشىء ، وليس بمعجز الله ولا ضار بدينه ، وأن لدين الله أولياء وناصرين مدخرين لعلم الله ، إن ينصرف هؤلاء يجىء بهؤلاء ، ويصور ملامح هذه العصبة المختارة المدخرة فى علم الله لدينه ، وهى ملامح محببة جميلة وضيئة. ويبين جهة الولاء الوحيدة التى يتجه إليها المسلم بولائه ، ويختم هذا النداء بتقرير النهاية المحتومة للمعركة التى يخوضها حزب الله مع الأحزاب ! والتى يتمتع بها من يخلصون ولاءهم لله ولرسوله وللمؤمنين .

يقول صاحب الظلال : إن اختيار الله للعصبة المؤمنة ، لتكون أداة القدر الإلهى إقرار دين الله فى الأرض ، وتمكين سلطانه فى حياة البشر ، وتحكيم منهجه فى أوضاعهم وأنظمتهم ، وتنفيذ

شريعته فى أقضيتهم وأحوالهم ، وتحقيق الصلاح والخير والطهارة والنماء فى الأرض بذلك المنهج وبهذه الشريعة ، إن هذا الاختيار للنهوض بهذا الأمر هو مجرد فضل الله ومنته ، فمن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه هذه المنة ، فهو وذاك . والله غنى عنه ـ وعن العالمين ، والله يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم » .

ويحدد عز وجل سمات العصبة التى اختارها للولاء له ولنصره دينه ، وأول هذه السمات الحب والرضا المتبادل بينهم وبين ربهم وكذلك هم أذلة على المؤمنين ؛ وليست مذلة ومهانة إنما هى الأخوة ترفع الحواجز ، وتزيل التكلف وتخلط النفس بالنفس ، فلا يبقى فيها ما يستعصى وما يحتجز دون الآخرين ، وهم أعزة على الكافرين فيهم إباء واستعلاء . وهذه العزة ليست للذات ولا استعلاء للنفس ، إنما هى العزة للعقيدة ، وكذلك من أجل سماتهم الجهاد فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . وجهادهم لإقرار منهج الله فى الأرض ، وإعلان سلطانه على البشر ، وتحكيم شريعته فى الحياة لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس ، وذلك كله فضل الله يُعطى عن سعة ، ويُعطى عن علم ، وما أوسع هذا العطاء ؛ الذى يختار الله له من يشاء عن علم وعن تقدير.

ويحدد الله للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة له ولرسوله والمؤمنين والتى تتفق مع صفة الإيمان، ويأتى النداء الثالث الذى يثير فى نفوسهم الحمية لدينهم ولعبادتهم ولصلاتهم التى يتخذها أعداؤهم هزواً ولعباً ، ويسوى فى النهى عن الموالاة بين أهل الكتاب والكفار ، وينوط هذا النهى بتقوى الله ، ويعلق على الاستماع إليه صفة الإيمان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن الفرق حادٌّ بين أن نوالى اليهود والنصارى وأن نحسن التعامل معهم ، فالموالاة لهم منهى عنها ، وحسن التعامل مأمور به ، والولاء لا يكون إلا لله ولرسوله وللمؤمنين .

٢ ـ النفاق ظاهرة بشرية لا يخلو منها مجتمع للناس فى أى عصر من العصور ، وهؤلاء المنافقون فى قلوبهم مرض، ومن كان قلبه مريضاً كان كل ما فى حياته مريضاً ، لأن القلب إذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله .

٣ ـ الولاء الحق هو ما كان لله ولرسوله وللمؤمنين ، وليس الولاء لأهل الكتاب أو الكفار أو المشركين ، بل ليس الولاء لأى مؤمن عامل بمقتضى الإيمان .

٤ ـ على المؤمن أن يتواضع للمؤمنين ويظهر العزة للكافرين ، ويقول الحق دائماً ولا يخاف فى الله لومة لائم .

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ
هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ
عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ
﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ
ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ
وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟
يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟
بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ
وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

معانى الكلمات :

تنقمون : تكرهون أو تعيبون .

فاسقون : خارجون عن الطريق المستقيم .

أنبئكم : أخبركم . **مثوبة عند الله** : جزاءً ثابتاً وعقوبة .

لعنه الله : طرده الله من رحمته .

عَبَد الطاغوت : أطاع الشيطان .

سواء السبيل : الطريق المعتدل .

السحت : المال الحرام .

الربانيون : عُبَّاد اليهود .

مغلولة : مقيدة من شدة البخل .

غلت أيديهم : دعاء عليهم .

مبسوطتان : إثبات الكرم والسخاء لله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن ندرك أن تحدى الدعوة إلى الله طبيعة فى النصارى واليهود.

٢ ـ أن ندرك أنه لا قعود عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خوفاً من بطش حاكم ، أو تملقاً لأهل الباطل والهوى ، أو حرصاً على الدنيا .

٣ ـ بيان قبح سكوت العلماء على المنكر وإغضائهم على فاعليه .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق مصدرًا حال أهل الكتاب وقد اتخذوا الصلاة ـ والنداء هزوًا ولعبا ، فمنهم من كان يتخذ النداء أداة استخفاف بمحاكاة صوت المؤذن ، واللعب بتقليده تهكما وتعابثا ، زمنهم من اتخذ شكل الصلاة الإسلامية موضع وسخرية واستهزاء ، وهذا الذى كان منهم سببه أن أحلامهم قد سفهت ، وصاروا لا يدركون الأمور على وجهها ، فلا يكفرون فى الأمور تفكير العقلاء الذين يتدبرون بعقولهم ، وقد قام لديهم البرهان العقلى والدليل على أن ما جاء به محمد لا يقبل الإنكار لمن يفكر بعقله .

obeikandl.com

و يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ ؛ ليواجه أهل الكتاب ، فيسألهم : ماذا ينقمون من الجماعة المسلمة؟ وهل ينقمون منها إلا الإيمان بالله ، وما أنزل إلى أهل الكتاب ؛ وما أنزله الله للمسلمين بعد أهل الكتاب ؟ هل ينقمون إلا أن المسلمين يؤمنون . وأنهم هم ـ أهل الكتاب ـ أكثرهم فاسقون ؟ وهى مواجهة مخجلة . ولكنها كذلك كاشفة وحاسمة ومحددة لأصل العداوة ومفرق الطريق .

يقول صاحب الظلال : « إن أهل الكتاب لم يكونوا ينقمون على المسلمين فى عهد الرسول ﷺ ، وهم لا ينقمون اليوم على طلائع البعث الإسلامى ـ إلا أن هؤلاء المسلمين يؤمنون بالله ؛ وما أنزله الله إليهم من قرآن ؛ وما صدق عليه قرآنهم بما أنزله الله من قبل من كتب أهل الكتاب ، إنهم يعادون المسلمين لأنهم مسلمون ! لأنهم ليسوا يهوداً ولا نصارى ، ولأن أهل الكتاب فاسقون منحرفون عما أنزله الله إليهم ؛ وآية فسقهم وانحرافهم أنهم لا يؤمنون بالرسالة الأخيرة وهى مصدقة لما بين أيديهم ـ لا ما ابتدعوه وحرفوه ـ ولا يؤمنون بالرسول الأخير .

إنهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء ؛ التى لم تضع أوزارها قط ، ولم يخب أوارها طوال ألف وأربعمائة عام ؛ منذ أن قام للمسلمين كيان فى المدينة ، وتميزت لهم شخصية ؛ وأصبح لهم وجود مستقل ؛ ناشئ من دينهم المستقل ، وتصورهم ونظامهم المستقل ، فى ظل منهج الله الفريد .

إنهم يشنون على المسلمين هذه الحرب المشبوبة ؛ لأنهم ـ بل قبل شىء ـ مسلمون لا يمكن أن يطفئوا هذه الحرب المشبوبة إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم ، فيصبحوا غير مسلمين ؛ ذلك أن أهل الكتاب أكثرهم فاسقون ؛ ومن ثم لا يحبون المستقيمين الملتزمين من المسلمين ! .

ولقد علم الله ـ سبحانه ـ أن الخير لابد أن يلقى النقمة من الشر ، وأن الحق لابد أن يواجه العداء من الباطل ، وأن الاستقامة لابد أن تثير غيظ الفساق ، وأن الالتزام لابد أن يجر حقد المنحرفين ، وعلم الله ـ سبحانه ـ أن لابد للخير والحق والاستقامة والالتزام أن تدفع عن نفسها وأن تخوض المعركة الحتمية مع الشر والباطل والفسق والانحراف ، وأنها معركة لا خيار فيها ، ولا يملك الحق ألا يخوضها فى وجه الباطل ؛ لأن الباطل سيهاجمه ، ولا يملك الخير أن يتجنبها؛ لأن الشر لابد سيحاول سحقه .

ثم تمضى الآيات لمواجهة أهل الكتاب بعد تقرير بواعث نقمتهم على المسلمين واستنكار هذه البواعث فى النقمة على المسلمين ، فإذا هو يجبههم بتاريخ قديم لهم ، وشأن لهم مع ربهم وعقاب أليم فلقد لعنهم الله ؛ وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت ، والله ـ سبحانه ـ يوجه رسوله ﷺ لمجابهة أهل الكتاب بهذا التاريخ ، وبذلك الجزاء الذى استحقوه من الله على هذا التاريخ .. كأنما هم جيل واحد بما أنهم جبلة واحدة يوجهه ليقول :إن هذا شر عاقبة.

ويمضى السياق فى التنفير من موالاتهم بعرض صفاتهم وسماتهم ـ بعد عرض تاريخهم وجزائهم ـ ويجىء التحذير والتوعية منهم بكشف ما يبيتون ، ويبرز اليهود كذلك فى الصورة؛ لأن الحديث عن وقائع جارية ومعظم الشر قادم من اليهود . ويخبر الله عز وجل رسوله ﷺ أنهم لكثرة ما يرتكبون من الذنوب ويغشون من المعاصى ترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت علناً لا يستترون به ولا يخفونه ، فذمهم الله على ذلك ، وقبح فعلهم ، وأنكر على عُبّادهم وعلمائهم سكوتهم عن جرائم عوامهم ورضاهم بها مصانعة لهم ومداهنة .

ويخبر الله تعالى عن كفرهم وجرأتهم على الله تعالى بباطل القول وسيء العمل ، ولعنهم تعالى ولعن كل صالح فى الأرض والسماء بسبب قولهم الخبيث الفاسد وأكذبهم تعالى فى قولهم : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ فقال : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ ثم أخبر تعالى رسوله بتدبيره فيهم انتقاماً منهم ، فقال عز وجل : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أى أن العداوة بين اليهود والنصارى لا ولن تنتهى إلى يوم القيامة ، ثم أخبر عن اليهود أنهم ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ فلم يفلحوا فيما أرادوه ، وقد أذلهم الله على يد رسوله والمؤمنين وأخزاهم، ومن دار الإيمان أجلاهم ، وأخبر تعالى أنهم يسعون دائماً وأبداً فى الأرض بالفساد ؛ فلذا أبغضهم الله وغضب عليهم ، لأنه تعالى لا يحب المفسدين .

وهذا الشر والفساد الذى تمثله وتثيره وتدبره يهود ، لابد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه ، فالله لا يحب الفساد فى الأرض ؛ وما لا يحبه الله لابد أن يبعث عليه من عباده من يزيله ويعفى عليه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ماضى اليهود وتاريخهم الأسود يقول أنهم أصل الشرور والإفساد والكفر والإلحاد ، وتلك طبيعة فيهم ولا يرقبون فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة ، والاطمئنان إليهم غفلة وسذاجة وجهادهم فريضة على كل من آمن بالله ورسوله .

٢ ـ على الدعاة أن يمارسوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفق ضوابطهما الشرعية لأن ذلك هو الذى يقاوم الفساد والباطل ، ويشيع الحق والعدل والخير .

٣ ـ معاداة اليهود والنصارى للمسلمين أمر فطرى فيهم ، ولن يزول حتى تقوم الساعة فلا مهادنة ولا استسلام لهما ، ولكن يجب معهم حسن من المعاملة مع الحذر والإعداد .

٤ ـ على الأمة ألا تخشى فساد اليهود ومكائدهم فإن الله عز وجل لابد أن يبعث عليهم جيلاً قرآنياً فريداً يوقفهم ويحطمهم ، فإن الله لا يحب الفساد ، وما لا يحبه الله يزيله ويعفى عليه .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟
ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن
فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ
مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا
لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

معانى الكلمات :

أمة مقتصدة : معتدلة وهم من أسلم منهم

يعصمك : يحميك . **فلا تأس** : فلا تحزن .

الذين هادوا : رجعوا إلى الله . **الصابئون** : عبدة الكواكب . **ميثاق** : عهد .

بما تهوى أنفسهم : بما لا يحبون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أن من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحاً ، فإنه ينجو من عذاب الله ، ولا يخاف ولا يحزن .

٢ ـ بيان أن العمل بطاعة الله ـ عز وجل ـ سبب لسعة الرزق ، وأن الطاعات مفتاح لجميع أنواع السعادات .

٣ ـ بيان صفات اليهود وسلوكهم المقيت مع الرسل ودعاة الحق .

المحتوى التربوى :

تطرح هذه الآيات القاعدة الإيمانية الكبرى ـ قاعدة أن إقامة دين الله فى الأرض معناها الصلاح والكسب فى حياة المؤمنين فى هذه الدنيا وفى الآخرة على السواء ، لا افتراق بين دين ودنيا ، ولا افتراق بين دنيا وآخرة ، فهو منهج واحد للدنيا والآخرة ، للدنيا والدين .

تأتى هذه القاعدة الإيمانية عقب الحديث عن انحراف أهل الكتاب عن دين الله ، وأكلهم السحت ؛ وتحريفهم الكلم من بعد مواضعه لينالوا عرضاً من أعراض هذه الدنيا ، واتباع الدين كان أجدى وأنفع لهم فى الأرض والسماء فى الدنيا والآخرة لو أنهم اختاروا طريق الهدى .

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول لأهل الكتاب ـ ويصدق القول وينطبق على كل أهل الكتاب ـ إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ، ولأدخلهم جنات النعيم ـ وهذا جزاء الآخرة . وإنهم لو كانوا حققوا فى حياتهم الدنيا ، منهج الله المتمثل فى التوراة والإنجيل وما أنزل الله إليهم من التعليم لصلحت حياتهم الدنيا ، ونمت وفاضت عليهم الأرزاق ، ولأكلوا من فوقهم ومن

تحت أرجلهم من فيض الرزق ، ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج الله ـ إلا قلة منهم فى تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ .

وتمضى الآيات فى بيان حال أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ـ وكشف الانحراف فيما يعتقدون ، وكشف السوء فيما يصنعون ، وينادى الله ـ سبحانه ـ الرسول ﷺ وكلفه تبليغ ما أنزل إليه من ربه ، كل ما أنزل لا يستبقى منه شيئاً ، ولا يؤخر منه شيئاً مراعاة للظروف والملابسات ، أو تجنبا للاصطدام بأهواء الناس ، وواقع المجتمع ، وإن لم يفعل فما يكون قد بلغ .

وأن يعلن كذلك كفر اليهود بنقضهم الميثاق وقتلهم الأنبياء وعليه أن يبلغ ولا يجعل لأى اعتبار من الاعتبارات حساباً وهو يصدع بكلمة الحق . وإلا فما بلغ وما أدّى وما قام بواجب الرسالة ، والله يتولى حمايته وعصمته من الناس ، ومن كان الله له عاصماً فماذا يملك له العباد المهازيل !

يقول صاحب الظلال : « إن كلمة الحق فى العقيدة لا ينبغى أن تجمجم! إنها يجب أن تبلغ كاملة فاصلة؛ وليقل من شاء من المعارضين لها كيف شاء؛ وليفعل من شاء من أعدائها ما يفعل؛ فإن كلمة الحق فى العقيدة لا تملق الأهواء ؛ ولا تراعى مواقع الرغبات ، إنما تراعى أن تصدع حتى تصل إلى القلوب فى قوة وفى نفاذ .

وكلمة الحق فى العقيدة حين تصدع تصل إلى مكان القلوب التى يكمن فيها الاستعداد للهدى ، وحين تجمجم لا تلين لها القلوب التى لا استعداد فيها للإيمان ؛ وهى القلوب التى قد يطمع صاحب الدعوة فى أن تستجيب له لو داهنها فى بعض الحقيقة ! »

وكذلك كلف الله رسوله ﷺ أن يواجههم ـ اليهود والنصارى ـ بأنهم ليسوا على شىء من الدين والعقيدة والإيمان ، بل ليسوا على شىء أصلاً يرتكن عليه !

وتقريراً لذلك يخبر الله نبيه بأن كثيرًا من اليهود والنصارى يزيدهم ما يوحى الله تعالى إلى رسوله ، وما ينزل عليه فى كتابه من أخبار أهل الكتاب مما هو بيان لذنوبهم وضلالهم ، يزيدهم ذلك طغياناً وكفراً وعُلواً وعتواً فوق كفرهم ، ويأمر الله نبيه بألا ييأس ولا يحزن على عدم إيمانهم به وبما جاء به ، لأنهم قوم كافرون .

ثم يقرر أن الذين آمنوا وهم المسلمون ، والذين هادوا وهم اليهود ، والصابئون وهم الفئة التى تركت عبادة الأوثان قبل بعثة النبى ﷺ ، وعبدت الله وحده على غير نحلة معينة والنصارى وهم أتباع المسيح عليه السلام كل هؤلاء أياً كانت نحلتهم إن آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً فقد نجوا ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ولا عليهم مما كانوا فيه قبل ذلك ؛ ولا مما يحملون من أسماء وعنوانات فالمهم هو العنوان الأخير وهو الإسلام لله رب العالمين .

وتأخذ الآيات بعد ذلك فى عرض طرف من تاريخ بنى إسرائيل ـ اليهود ـ يتجلى كيف أنهم ليسوا على شىء ؛ فلقد مردوا على العصيان والإعراض ، ومردوا على النكول عن ميثاق الله ؛ ومردوا على اتخاذ هواهم إلههم لا دين الله ، ولا هدى الرسل ؛ ومردوا على الإثم والعدوان على دعاة الحق وحملة دعوة الله ، فليس موقفهم من رسول الإسلام ﷺ ـ بالأول ولا بالأخير !

يقول صاحب الظلال :

« ولعله من أجل ذلك قص الله تاريخ بنى إسرائيل على الأمة المسلمة فى تفصيل وتطويل ، لعلها تتقى أن تكون كبنى إسرائيل ، ولعلها تحذر مزالق الطريق ، أو لعل الواعين منها الموصولين بالله يدركون هذه المزالق ؛ أو يتأسون بأنبياء بنى إسرائيل حين يصادفون ما صادفوا أجيالاً من ذرارى المسلمين تنتهى إلى ما انتهى إليه بنو إسرائيل ، حين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، فتحكم الهوى ؛ وترفض الهدى، وتكذب فريقاً من الدعاة إلى الحق ، وتقتل فريقاً ، كما صنع بغاة بنى إسرائيل ، فى تاريخهم الطويل ! » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ تبليغ دين الله لعباد الله واجب شرعى قام به النبى ﷺ ، ويجب أن يقوم به كل مسلم بعد النبى ﷺ لقوله تعالى ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ (يوسف : ١٠٨) .

٢ ـ أن من كتم شيئاً من دين الله عن الناس وهو قادر على ابلاغه ، فكأنه كتم الدين كله ، وقعد عن واجب أوجبه الله تعالى عليه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ .

٣ ـ أن نثق فى تأييد الله ونصره وحفظه لدعاته مهما تعرضوا للخطر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وكما عصم الله نبيه ، سيعصم الدعاة إليه على حق من أعدائهم .

٤ ـ ليس على المسلمين إلا البلاغ ، وأما هداية الناس واستجابتهم للحق فإلى الله وحده ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ فقصر وظيفة النبى والدعاة على البلاغ لا الهداية .

٥ ـ إن الدنيا كلها إذا تحولت إلى كثرة ضالة وانكمشت القلة ، فأصبحت داعية واحداً ، فإن ذلك ما ينبغى أن يخدع من الحق ولا عن سنة الله فى خلقه ، وفى صراع الباطل مع الحق ، فجولة الباطل ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة.

وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ
ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾
لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ
إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ
إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾
مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ
ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ
ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾
١٢٠

معانى الكلمات :

عموا وصموا : فعموا عن رؤية الحق سماعه . **مأواه** : مرجعه ومصيره .

خلت : مضت . **أمة صديقة** : كثيرة الصدق مع الله . **أنى يؤفكون** : كيف يصرفون عن تدبر الدلائل البينة وقبولها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ تبرئة المسيح عليه السلام وأمه مما نسب إليهما من أنهما إلهان من دون الله .

٢ ـ بيان كفر القائلين بأن الله هو المسيح أو أنه ثالث ثلاثة .

٣ ـ بيان طبيعة اليهود والنصارى؛ ليكون تعاملنا معهم على وفق ما جاء فى التنزيل الحكيم .

المحتوى التربوى :

يواصل سياق هذه الآيات الحديث عن بنى إسرائيل الذين صنعوا كل الآثام ؛ وهم يحسبون أن الله لن يفتنهم بالبلاء ولن يأخذهم بالعقاب ؛ حسبوا هذا الحسبان غفلة منهم عن سنة الله ؛ وغرورًا منهم بأنه شعب الله المختار فطمس الله على أبصارهم فلا يفقهون مما يرون شيئاً ؛ وطمس على مسامعهم فلا يفيدون مما يسمعون شيئاً ، ثم أدركهم الله برحمته ، فلم يرعووا ولم ينتفعوا ﴿ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ والله مجازيهم بما يراه ويعلمه من أمرهم وما هم بمفلتين .

ذلك شأن اليهود من أهل الكتاب ، فأما شأن النصارى ، فلقد تحدثت عنهم الآيات قبل ذلك ، ووصفت الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم بالكفر ، وفى هذه الآيات يكرر هذا الوصف ، سواء لمن قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، ومن قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم مع ذكر شهادة عيسى عليه السلام عليهم بالكفر ، وتحذيره لهم من وصف أحد بالألوهية إلا الله ـ سبحانه ـ واعترافه بأن الله هو ربه وربهم على السواء ، ثم تحذير الله لهم فى النهاية من المضى فيما هم عليه من الكفر .

وهكذا حذرهم المسيح عليه السلام فلم يحذروا ، ووقعوا بعد وفاته عنهم فيما حذرهم من الوقوع فيه ، وما أنذرهم عليه من الحرمان من الجنة والانتهاء إلى النار ، ونسوا قول المسيح عليه السلام ؛ حيث

أعلن لهم أنه وهم فى العبودية سواء ، لربوبية الله الواحد الذى ليس له من شركاء ، ويستوفى القرآن الكريم الحكم على سائر مقولاتهم الكافرة ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾، ويقرر الحقيقة التى تقوم عليها كل عقيدة جاء بها رسول من عند الله ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾

ويهددهم عاقبة الكفر الذى ينطقون به ويعتقدونه ، ثم أردف التهديد والوعيد بالتحضيض والترغيب ، ليبقى لهم باب التوبة مفتوحاً ؛ وليطمعهم فى مغفرته عز وجل قبل فوات الأوان .

ثم واجههم بالمنطق الواقعى القويم ، لعله يرد فطرتهم إلى الإدراك السليم ، مع التعجب من أمرهم فى الانصراف عن هذا المنطق بعد البيان والإيضاح ، فأكل الطعام مسألة واقعية فى حياة المسيح وأمه ـ أو على ناسوته بتعبيرهم اللاهوتى ـ فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لا مراء فيها، ولا يكون إلهاً من يحتاج إلى الطعام ليعيش ، فالله حى بذاته ، قائم بذاته ، باق بذاته ، لا يحتاج ، ولا يدخل إلى ذاته ـ سبحانه ـ أو يخرج منها شىء حادث كالطعام.

ونظراً لوضوح هذا المنطق الواقعى ونصاعته التى لا يجادل فيها إنسان يعقل ، فإنه يعقب عليه باستنكار موقفهم والتعجب من انصرافهم عن ذلك المنطق البين ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ ؛ واستطراداً فى ذلك المنطق القرآنى المبين من زاوية أخرى يأتى هذا الاستنكار : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

يقول صاحب المنار : « أقام الله تعالى البرهان من حال المسيح وأمه على بطلان كونه إلها ، وبين ما يشاركان به أشرف البشر من المزية الخاصة ، وما يشاركان به سائر البشر من صفاتهم العامة ، وقضى على ذلك بالعجيب من بعد التفاوت ما بين قوة الآيات التى حجهم بها ، وشدة انصرافهم عنها ، ثم لقن نبيه حجة أخرى يوردها فى سياق الإنكار عليهم وتبكيتهم على عبادة ما لا فائدة فى عبادته : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ .

ويقول صاحب الأساس : فى هذه الآية : « أتعبدون عيسى ! وهو لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلاء والمصائب فى الأنفس والأموال ، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسّعة والخصب ، لأن كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع ، فبتخليقه تعالى فكأنه لا يملك منه شيئًا ، وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبيّة حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً ، وصفة ا لرب أن يكون قادراً على كل شىء لا يخرج مقدور عن قدرته ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أى : أتشركون بالله ولا تخشونه وهو الذى يسمع ما تقولونه ، ويعلم ما تعتقدونه ».

ويقول صاحب الظلال : « ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الذى يسمع ويعلم ، ومن ثم يضر وينفع . كما أنه هو الذى يسمع دعاء عبيده وعبادتهم إياه ، ويعلم ما تكنه صدورهم وما يكمن وراء الدعاء والعبادة . فأما ما سواه فلا يسمع ولا يعلم ولا يستجيب الدعاء » .

حقائق هامة من السياق :

ـ **الحقيقة الأولى :** الاهتمام البالغ بتصحيح التصور الاعتقادى للمسلمين ، وإقامته على قاعدة التوحيد الكامل يدل على اعتبار الإسلام للعقيدة بوصفها القاعدة والمحور لكل نشاط إنسانى ، ولكل ارتباط إنسانى كذلك .

ـ **الحقيقة الثانية :** هى تصريح القرآن الكريم بكفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ؛ أو قالوا إن الله ثالث ثلاثة : فلم يعد لمسلم ـ بعد قول الله سبحانه ـ قول ، ولم يعد يحق لمسلم أن يعتبر أن هؤلاء على دين الله ، والله سبحانه يقول : إنهم كفروا بسبب هذه المقولات .

إذا كان الإسلام ـ كما قلنا ـ لا يكره أحدًا على ترك ما هو عليه مما يعتقده لاعتناق الإسلام ، فهو فى الوقت ذاته لا يسمى ما عليه غير المسلمين دينا يرضاه الله ، بل يصرح هنا بأنه كفر ، ولن يكون الكفر دينا يرضاه الله .

ـ **الحقيقة الثالثة :** المترتبة على هاتين الحقيقتين ، أنه لا يمكن قيام ولاء وتناصر بين أحد من أهل الكتاب هؤلاء ، وبين المسلم الذى يدين بوحدانية الله كما جاء بها الإسلام .

ومن ثم يصبح الكلام عن التناصر بين أهل « الأديان » أمام الإلحاد كلاما لا مفهوم له فى اعتبار الإسلام .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ تقرير كفر النصارى بقولهم المسيح هو الله ، وبقولهم : إن الله ثالث ثلاثة .

٢ ـ تقرير وتأكيد عبودية عيسى وأمه ـ عليهما السلام ـ لله رب العالمين .

٣ ـ تحريم الجنة على من لقى ربه ، وهو يشرك به شيئاً .

٤ ـ تقرير بشرية عيسى ومريم ـ عليهما السلام ـ بدليل احتياجهما إلى الطعام لقوام بنيتهما ، ومن كان مفتقراً لا تصح ألوهيته عقلاً وشرعاً .

٥ ـ ذم كل من يعبد غير الله إذ كل الخلائق مفتقرة لا تملك لنفسها ولا لعابدها ضرّاً ولا نفعاً ، ولا تسمع دعاء من يدعوها ، ولا تعلم عن حاله شيئاً ، والله وحده السميع لأقوال كل عباده، العليم بسائر أحوالهم وأعمالهم ، فهو المعبود بحق وما عداه باطل .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟
كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى
ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾
كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ
مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ
أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾
وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ
مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ
﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ
وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾
١٢١

معانى الكلمات :

لا تغلوا : لا تجاوزوا الحد . **غير الحق** : غُلواً باطلاً . **لعن** : أبعد عن رحمة الله .

يعتدون : يتجاوزون الحد . **لا يتناهون** : لا ينهى بعضهم بعضاً . **يتولون الذين كفروا**: يتخذوهم أنصاراً . **قسيسين** : خطباؤهم وعلماؤهم . **رهبانا** : جمع راهب وهو العابد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أهمية التوسط فى ، الدين فالإسلام دين الوسطية السمحة فلا مغالاة ولا تعسف ولا عسر فى دين الله عز وجل .

٢ ـ بيان أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والأخذ على أيدى الظالمين لنجاة المجتمع من الهلاك .

٣ ـ بيان حقيقة موقف اليهود والنصارى والذين أشركوا من الإسلام والمسلمين .

المحتوى التربوى :

يكلف الله نبيه فى هذه الآيات أن يوجه إلى أهل الكتاب دعوة جامعة ألا يغلوا فى دينهم غير الحق ، ولا يتبعوا أهواء الذين ضلوا ـ فمن الغلو فى تعظيم عيسى عليه السلام جاءت كل الانحرافات ، ومن أهواء المجامع المتناحرة دخلت مقولات الكفر على دين الله الذى أرسل به المسيح .

قال الإمام الرازى : « إنه تعالى وصفهم بثلاث درجات فى الضلال : فبين أنهم كانوا ضالين من قبل ، ثم ذكر أنهم كانوا مضلين لغيرهم ، ثم ذكر أنهم استمروا على تلك الحالة حتى إنهم الآن ضالون كما كانوا ، ولا نجد حالة أقرب إلى البعد من الله والقرب من عقاب الله تعالى من هذه الحالة ، ويحتمل أن يكون المراد أنهم ضلوا وأضلوا ثم ضلوا بسبب اعتقادهم فى ذلك الإضلال أنه إرشاد إلى الحق ، ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الأول الضلال عن الدين ، وبالضلال الثانى الضلال عن طريق الجنة » .

وهذا النداء هو دعوة الإنقاذ الأخيرة لأهل الكتاب، ليخرجوا من هذا الغلو وهذه الأهواء، ثم يجىء ذلك التقرير الشامل عن موقف أنبياء بنى إسرائيل من كفار بنى إسرائيل على مدى التاريخ ، على لسان أنبيائهم ، فلقد لعنوا كفار بنى إسرائيل ، واستجاب الله لهم ، بسبب

عصيانهم وعدوانهم ، وسكوتهم على المنكر ينتشر فيهم فلا يتناهون عنه ، وبسبب توليهم الكافرين ؛ فباؤوا بالسخط واللعنة ، وكتب عليهم الخلود فى العذاب .

يقول القاسمى : « دلت الآية على المنع من الذرائع التى تبطل مقاصد الشرع ؛ كما رواه أكثر المفسرين أن الذين لعنهم داود عليه السلام أهل أيلة الذين اعتدوا فى السبت واصطادوا الحيتان فيه .. وتدل أن ترك النهى من الكبائر » .

وهكذا يبدو أن تاريخ بنى إسرائيل فى الكفر والمعصية واللعنة عريق . وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم ، وهم فى النهاية الذين تولوا لعنتهم وطردهم من هداية الله فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة على بنى إسرائيل .

والمعصية والاعتداء الذى حفل بهما تاريخ بنى إسرائيل لم تكن أعمالاً فردية ، ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها ؛ وأن يسكت عنها المجتمع ، ولا يقابلها بالتناهى والنكير : ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ .

فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر إذا هى سكتت عليه ؛ ويجعل الأمانة فى عنق كل فرد ، بعد أن يضعها فى عنق الجماعة عامة . روى أبو داود ـ بإسناده ـ عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول : يا هذا اتق الله ، ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » ثم قال : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ فَـٰسِقُونَ ﴾ ، ثم قال : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ـ أو تقصرنه عن الحق قصراً » .

فليس هو مجرد الأمر والنهى ، ثم تنتهى المسألة ، إنما هو الإصرار ، والمقاطعة ، والكف بالقوة عن الشر والفساد والمعصية والاعتداء ، ولابد من الأمر بالمعروف الأكبر وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة ، والنهى عن المنكر الأكبر وهو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة ، وبعد إقامة الأساس يمكن أن يقام البنيان ! فلتوفر الجهود المبعثرة إذن ، ولتحشد كلها فى جبهة واحدة ، لإقامة الأساس الذى عليه وحده يقام البنيان !

ثم يمضى السياق فى الحديث عن بنى إسرائيل ، وهو نهاية هذا الجزء . فيصف حالهم على عهد رسول الله ﷺ وهى حالهم فى كل زمان وكل مكان ، فهم يتولون الذين كفروا ويتناصرون معهم ضد الجماعة المسلمة ، فلقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين ؛ ويؤلبونهم على المسلمين ، « ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً » .

وقد تجلى هذا كله على أتمه فى غزوة الأحزاب ، ومن قبلها ومن بعدها كذلك ، إلى اللحظة الحاضرة ، وما قامت إسرائيل فى أرض فلسطين أخيراً إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحديين !

فسخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ، ويذكر الله الدافع لفعلهم هذا ، لأنهم لم يؤمنوا بالله والنبى وما أنزل إليه ، إن كثرتهم فاسقة ، فهم يتجانسون مع الذين كفروا فى الشعور والوجهة . فلا جرم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين .

هنا انتهى الجزء السادس ، ويبدأ الجزء السابع بالحديث عن اليهود والنصارى والمشركين ومواقفهم من الرسول ﷺ ، ومن الأمة المسلمة وهى طرفٌ من الحديث الذى تضمنته السورة من قبل خلال أكثر من « ربعين » ، حيث تناولت الحديث عن فساد عقيدة اليهود والنصارى معاً، وسوء طوية اليهود وسوء فعلهم ، سواء مع أنبيائهم من قبل أو مع ﷺ ونصرة المشركين عليه، كما تناولت الحكم على عقيدة اليهود والنصارى التى انتهوا إليها بأنها « الكفر » لتركهم ما جاء فى كتبهم وتكذيبهم بما جاءهم به رسول الله ﷺ .

ويتواصل السياق مستكملاً الحديث عن اليهود والنصارى الذى سبق الحديث عنه آنفاً ، وهنا يقرر عداء اليهود لدولة الإسلام منذ نشأتها، والكيد لها ، فلقد شنوا حرباً مريرة من العداء المقيت والمكائد للإسلام فى تاريخه الطويل ولم تهدأ ولم تخب لحظة واحدة ، وما تزال حتى اللحظة يستعر أوارها فى أرجاء المعمورة .

وهذه الآيات ـ **كما يقول صاحب الظلال** : « تصور حالة ، وتقرر حكماً فى هذه الحالة . تصور حال فريق من اتباع عيسى عليه السلام : « الذين قالوا : إنا نصارى » وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا ، وهى حالة معينة لفئة من الناس يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم » .

ولكن السياق القرآنى لا يقف عند هذا الحد ، ولا يدع الأمر مجهلاً ومعمماً على كل من قالوا: إنا نصارى ، وإنما هو يمضى فيصور موقف هذه الفئة التى يعنيها ، وهو ما سنعرفه فيما سيلى من الآيات .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ عدم المغالاة والتشدد والإفراط فى الدين بالباطل ، وضرورة الالتزام بالحق والصواب . وتبصير المغالين فى الدين بحقيقة الدين وجوهره ، وطبيعة التدين ووسطيته .

٢ ـ من المنكرات التى تعرض الأمم لعقاب الله ـ تعالى ـ وعذابه عدم نهى بعضهم بعضاً عن المنكر حتى يتفشى فى المجتمع ، ويتجاهر الناس بالمعاصى ، فيقع العقاب على الجميع .

٣ ـ على المؤمنين فى كل زمان ومكان أن يأخذوا كل الحذر من صفنين من الناس ولا يأمنوا لهم جانباً ، ولا يصدقوا لهم قولاً أو عهداً وهذان الصنفان هما اليهود والذين أشركوا .

٤ ـ أقرب الناس مودة للذين آمنوا هم النصارى الذين عرفوا حقيقة دين النصارى واتبعوا المسيح حق الاتباع وآمنوا برسول الله ﷺ لما عرفوا من الحق ، وليس أصحاب بدعة التثليث ، ولا الذين يقولون : إن الله هو المسيح ولا الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة .

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ
اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ
بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ
فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ
أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا
أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

١٢٢

معانى الكلمات :

تفيض من الدمع : تمتلئ أعينهم بالدمع فتصبه . **باللغو فى أيمانكم :** هو أن يحلف على الشىء معتقداً صدقه والأمر بخلاف ذلك . **عقدتم الأيمان :** قصدتم به الحلف ووثقتم ذلك بالقصد والنية . **أوسط :** أعدل وأمثل . **تحرير رقبة:** عتق عبد أو أمة.

احفظوا أيمانكم : لا تتركوها بغير تكفير .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان حرمة تحريم ما أباح الله كحرمة تحليل ما حرم الله عز وجل .

٢ ـ بيان مدى حرص الصحابة على طاعة الله خوفاً من عقابه وطمعاً فى إنعامه.

٣ ـ بيان كفارة اليمين بالتفصيل .

المحتوى التربوى :

إن هذه الآيات تصور حالة فريق من أتباع عيسى عليه السلام : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ﴾.. وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا ، ويرسم المشهد القرآنى وصفاً لهم ، إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم ، ولانت قلوبهم ، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن الأثر والتأثر العميق العنيف بالحق الذى سمعوه . والذى لا يجدون له فى أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير . ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ؛ ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذى تأثروا به هذا التأثير عند سماع القرآن ، والشعور بالحق الذى يحمله والإحساس بما له من سلطان ! إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً ، موقف القبول لهذا الحق ، والإيمان به ، والإذعان لسلطانه ، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان فى لهجة قوية عميقة صريحة .

فيعلنون لربهم إيمانهم بهذا الحق الذى عرفوه ثم يدعونه ـ سبحانه ـ أن يضمهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق ، وأن يسلكهم فى سلك أمة الإسلام القائمة عليه فى الأرض ، ليس هذا فحسب بل يتضح الطريق أمامهم ، بحيث لا يعودون يرون أنه يجوز لهم أن يمضوا إلا فى طريق واحد ؛ هو طريق الإيمان بالله ، وبالحق الذى أنزله على رسوله ، والأمل ـ بعد ذلك ـ فى القبول عنده والرضوان .

obeikandi.com

ولقد علم الله صدق قلوبهم وألسنتهم ؛ وصدق عزيمتهم على المضى فى الطريق ؛ وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذى دخلوا فيه ، لقد علم الله منهم هذا كله ؛ فقبل منهم قولهم ، وكتب لهم الجنة جزاء لهم ؛ وشهد لهم ـ سبحانه بأنهم محسنون ، وأنه يجزيهم جزاء المحسنين .

ولا يقف السياق عند هذا الحد فى تحديد ملامح هذا الفريق المقصود من الناس الذين تجدهم أقرب مودة للذين آمنوا . بل إنه ليمضى فيميزه من الفريق الآخر من الذين قالوا : إنا نصارى ممن يسمعون هذا الحق فيكفرون به ويكذبون ، ولا يستجيبون له ، ولا ينضمون إلى صفوف الشاهدين .

وينتقل السياق ليتناول قضية الألوهية التى من مقتضاها التشريع ، فيقول عز وجل : يا أيها الذين آمنوا ، إن مقتضى إيمانكم ألا تزاولوا أنتم ـ وأنتم بشر عبيد لله ـ خصائص الألوهية التى يتفرد بها الله ، فليس لكم أن تحرموا ما أحل الله من الطيبات ؛ وليس لكم أن تمتنعوا ـ على وجه التحريم ـ عن الأكل مما رزقكم الله حلالاً طيباً ، فالله هو الذى رزقكم بهذا الحلال الطيب، والذى يملك أن يقول: هذا حلال وهذا حرام .

أخرج الترمذى ـ بإسناده ـ عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: إنى إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء، وأخذتنى شهوتى، فحرمت علىّ اللحم ، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ الآية .

ثم واجه الله هذه الحالة ـ وأمثالها ـ من الحلف على الامتناع عن المباح الذى آلى أولئك النفر عن أنفسهم أن يمتنعوا عنه ، فردهم رسول الله ﷺ عن الامتناع عنه ، وردهم القرآن الكريم عن مزاولة التحريم والتحليل بأنفسهم ، فهذا ليس لهم إنما هو لله الذى آمنوا به .

وقال ابن عباس فى نزول قوله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ الآية ، سبب نزولها : القوم الذين حرموا طيبات المطاعم والملابس والمناكح على أنفسهم حلفوا على ذلك ، فلما نزلت ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ قالوا : كيف نصنع بأيماننا « فنزلت هذه الآية » .

وقد تضمن الحكم أن الله ـ سبحانه ـ لا يؤاخذ المسلمين بأيمان اللغو ، التى ينطق بها اللسان دون أن يعقد لها القلب بالنية والقصد مع الحض على عدم ابتذال الأيمان بالإكثار من اللغوا بها إذ إنه ينبغى أن تكون لليمين بالله حرمتها ووقارها ، فلا تنطق هكذا لغواً ، فأما اليمين المعقودة ، التى وراءها قصد ونية ، فإن الحنث بها يقتضى الكفارة .

والكفارة هنا هى إطعام عشرة مساكين من أوسط الطعام الذى يقوم به الحالف لأهله أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ وهى الكفارة التى يُعاد إليها اليمين المعقودة عند عدم استطاعة الكفارات الأخرى ، والكفارة رد لاعتبار العقد المنقوض ، وحفظ للأيمان من الاستهانة بها ؛ وهى عقود ، وقد أمر الله ـ سبحانه ـ بالوفاء بالعقود . فإذا عقد الإنسان يمينه وكان هناك ما هو أبرّ فعل الأبر وكفر عن اليمين وإذا عقدها على غير ما هو من حقه كالتحريم والتحليل ، نقضها وعليه التكفير .

يقول صاحب **الظلال** : « ما أحله فهو الطيب ، وما حرمه فهو الخبيث وأن ليس للإنسان أن يختار لنفسه غير ما اختاره الله له من وجهين :

الوجه الأول : إن التحريم والتحليل من خصائص الله الرازق بما يجرى فيه التحليل والتحريم من الرزق ، وإلا فهو الاعتداء الذى لايحبه الله ، ولا يستقيم معه إيمان ..

والوجه الثانى : إن الله يحل الطيبات فلا يحرم أحد على نفسه تلك الطيبات التى بها صلاحه وصلاح الحياة ، فإن بصره بنفسه وبالحياة لن يبلغ علم الحكيم الخبير الذى أحل هذه الطيبات ولو كان الله يعلم فيها شرًا أو أذىً لوفاه عباده . ولو كان فى الحرمان منها خيرًا ماجعلها حلالًا . ولقد جاء هذا الدين ليحقق الخير والصلاح ، والتوازن المطلق ، والتناسق الكامل ، بين طاقات الحياة البشرية جميعًا ، فهو لا يغفل حاجة من حاجات الفطرة البشرية ، ولا يكبت طاقة بناءة من طاقات الإنسان تعمل عملًا سويًا ، ولا تخرج عن الجادة . ومن ثم حارب الرهبانية ، لأنها كبت للفطرة ، وتعطيل للطاقة وتعويق لها عن إنماء الحياة التى أراد الله لها النماء » .

ويبين السياق للذين يحرمون على أنفسهم ما أحله الله تعالى ، ويتخذون الأيمان ذريعة لذلك ، فيحلفون ألا يأكلوا أو ألا يأتوا النساء ، أو أن يقوموا الليل ويحرموا أنفسهم من متعة النوم وهكذا ، فبين الله تعالى تحلة هذه الأيمان ، وأنه يجب عليهم أو يسوغ لهم الحنث فى الأيمان ، ولغو اليمين الذى لا مؤاخذة عليه بنص القرآن ، هو ما لا يقصد به اليمين ، وما لا تكسبه القلوب ، ولا يوثق به الكلام بالامتناع عن الفل أو توكيد إيقاع الفعل فى المستقبل لا مؤاخذة عليه ، إنما المؤاخذة على ما تكسبه القلوب إذ حنث فى يمينه فعدل عما اعتزم عليه ، كمن يعدل على تحريم ما أحل الله .

وقد خير الحالف إذا حنث بين الأمور ثلاثة الإطعام لعشرة مساكين ، أو كسوتهم ، يختار إحداها ، وهو سيختار الأيسر عليه اقتداء بالنبى ﷺ ، فإذا لم يجد انتقل إلى الصوم ، وهذا ماحى إثم اليمين وقد شرعه الله لكم رجاء أن تشكروه إذا خفف عليكم وسهل لكم فعل الخير ، وحفظ الأيمان يتحقق بألا يكثر منها ، وألا يمتنع عن الخير بالحلف .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن المسلم مطالب بالالتزام بما أحل وما حرم ، وبالتوازن فى التعامل مع ما أحل الله وما حرم ، فليس من التقوى ولا من الصلاح أن يضيّق إنسان على نفسه فيحرم عليها التمتع بطيبات ما أحل الله ، لأن التحليل والتحريم من عمل الله سبحانه وتعالى ؛ لعلمه ما يصلح الإنسان وما قد يفسده فى حاضره أو مستقبله .

٢ ـ استحباب حنث من حلف على ترك مندوب أو فعل مكروه ، وتكفيره على ذلك ، أما إذا حلف أن يترك واجبًا أو يأتى محرمًا فإن حنثه وجب وعليه الكفارة .

٣ ـ من رحمة الله بالناس أن جاءت الشريعة الإسلامية بالتسامح فى الأقوال والأعمال من غير تقصير أورفعت عن الإنسان المؤاخذة والحرج إلا أن يكون قد تعمد التقصير : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ
مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ
ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ
وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ
رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ
أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ
ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ
وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ
يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ
مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا
سَلَفَ ۖ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾
١٢٣

معانى الكلمات :

الخمر : كل شراب مسكر .

الميسر : القمار . **الأنصاب**: حجارة كانت حول الكعبة يعظمونها ويتقربون إليها. **الأزلام**: قداح كانوا يستخدمونها للتفاؤل والتشاؤم .

رجس : خبيث وقذر . **جُناح** : إثم وحرج .

أنتم حُرم : محرمون بحج أو عمرة .

النعم : الإبل والبقر والضأن والمعز .

بالغ الكعبة : واصل الحرم فيذبح به .

عدل ذلك : معادل الطعام وقابله .

وبال أمره: سوء عاقبة ذنبه وثقل فعله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان علة تحريم شرب الخمر ولعب الميسر وهى إثارة العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

٢ ـ وجوب طاعة الله والرسول والحذر من معصيتهما .

٣ ـ وجوب التقوى حتى الموت ووجوب الإحسان فى المعتقد والقول والعمل .

المحتوى التربوى :

فى سياق التشريع بالتحريم والتحليل يجىء النص القاطع الأخير فى تحريم الخمر والميسر مقرونين إلى تحريم الأنصاب والأزلام . أى إلى الشرك بالله ؛ فشرب الخمر ، واللعب بالقمار ، والتماثيل المنصوبة من أجل عبادة غير الله، أو لذبح القرابين وتقديم النذور عندها باسم أحد غير الله تعالى ، والاستقسام بالأزلام ـ بمعنى التفاؤل والتشاؤم وضرب القرعة التى تشتمل على طلب المعونة من غير الله ـ كل ذلك أعمال شيطانية ؛ ذلك لأنها تؤدى إلى التدنى والانحدار عن المستوى العقلى والسلوكى .

فالخمر تقضى بدورها على ما يوجد فى نفس المرء من أحاسيس إنسانية لطيفة ، وأما القمار فقاتل لروح الإيثار والتعاون ، وهكذا الأنصاب والأزلام فهى من جملة أشياء تقوم إماً على عواطف سطحية ، وإما على أوهام وأساطير خرافية !!

إن الإسلام يريد الإنسان ذاكراً لله وعابداً له تعالى وحده ، وأن يُلزم نفسه بطاعة الله وطاعة رسوله ، وهذه أمور لابد للقيام بها من أن يكون المرء من الجدية بمكان ؛ على حين أن أوّل ما نقضى عليه الأشياء السالفة الذكر هو الجدّية بعينها !

ولما نزلت هذه الآيات قال بعض المشككين الذين يهدفون إلى البلبلة والحيرة ، هذا القول أو ما يشبهه ؛ يريدون أن ينشروا فى النفوس قلة الثقة فى أسباب التشريع ، أو الشعور بضياع إيمان من ماتوا والخمر لم تحرم ؛ وهى رجس من عمل الشيطان ، ماتوا والرجس فى بطونهم ! فنزل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ الآية . نزلت لتقرر أولاً أن ما لم يُحَرم لا يحرم ؛ وأن التحريم يبدأ من النص لا قبله ؛ وأنه لا يحرم بأثر رجعى ؛ فلا عقوبة إلا بنص ؛ سواء فى الدنيا أو فى الآخرة . لأن النص هو الذى ينشئ الحكم .. والذين ماتوا والخمر فى بطونهم ، وهى لم تحرم بعد ، ليس عليهم جُناح ؛ فإنهم لم يتناولوا محرماً ، ولم يرتكبوا معصية . لقد كانوا يخافون الله ويعملون الصالحات ويراقبون الله ، ويعلمون أنه مطلع على نواياهم وأعمالهم ، ومن كانت هذه حاله لا يتناول محرماً ولا يرتكب معصية .

قال ابن جرير الطبرى معلقاً على قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ الآية : « الاتقاء الأول هو الاتقاء بتلقى أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل ، والاتقاء الثانى الاتقاء بالثبات على التصديق ، والثالث الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل .

ثم يمضى السياق فى مجال التحريم والتحليل ، يتحدث عن الصيد فى حالة الإحرام ، وكفارة قتله ، وعن حكمة الله فى تحريم البيت والأشهر الحرم والهدى والقلائد ، التى نهى عن المساس بها فى مطالع السورة وكان هذا النهى عن إحلال الصيد وهم حرم ؛ وعن إحلال شعائر الله ، أو الشهر الحرام أو الهدى والقلائد ، أو قاصدى البيت الحرام ، لا يرتب عقوبة فى الدنيا على المخالف ، إنما يلحقه الإثم ، فالآن يبين العقوبة وهى الكفارة ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾ ويعلن العفو عما سلف من إحلال هذه المحارم ؛ ويهدد بانتقام الله ممن يعود بعد هذا البيان .

ويقول صاحب التذكير القويم (١) : « ومن أركان الحج والعمرة أن يرتدى الحاج أو المعتمر ملابس الإحرام الخاصة عند حدود الميقات المقررة ، قبل التوّجه إلى الكعبة ، وفى أثناء رحلته نحو الكعبة كثيراً ما يشاهد المُحرمْ حيوانات البر والطيور وهى تقع فى متناول يده ، ويكون

---

(١) الأستاذ وحيد الدين خان .

اقتناصها فى غاية السهولة ، غير أن اقتناصها ، سواء أقام به المرء بنفسه أم ساعد غيره عليه ، كلاهما محظور ومحرّم فى حالة الإحرام ، وقد نزلت هذه الآيات ـ كما جاء فى الروايات ـ خلال مسيرة الحديبية ، إذا كان المسلمون مُحرمين بقصده العمرة ، وكانت أسراب الطيور والحيوانات البرية إذْ ذاك تمر من أمامهم ، فكان من السهولة اقتناصها بالسهام أو طعنها بالرماح ، وكان المسلمون يطعمون ـ فى ذلك الوقت ـ فى الاصطياد بحكم عادتهم وضرورتهم معاً ، ولكن حين نزل الحكم الإلهى بالتحريم ، أمسك الجميع أيديهم عن ذلك ، وهذا الحكم الذى ورد بشأن معاملة الحيوانات فى حالة الإحرام مطلوب عند التعامل مع الناس فى الحياة اليومية ، والمقصد الأصلى من هذا الحكم هو : (ليعلم الله من يخافه بالغيب) ، فقد وضع الله الإنسان فى هذه الدنيا، وارتفع بذاته المقدسة عن مواقع أبصاره ؛ ذلك لكى يختبر الناس ، فيتميز منهم البصير العارف بالحقيقة الذى يعيش فى الدنيا كما لو كان يرى الله تعالى متجليا أمامه بكل قدرته وجلاله وجبروته ، عن الغافل المستهتر منهم ، الذى يخلو قلبه من خوف الله ؛ لأنه لا يراه بعينه ، فيقضى حياته تبعاً لأهوائه ونزواته ، وهذا الاختبار الذى يجرى فى رحلة الحج لبضعة أيام مع اهتمامات بالمعاملات والعلاقات الإنسانية المتبادلة كل يوم ، فقد يصادف أحد الناس بعض خصومه فى موطن يتمكن فيه من أن يسطو به ويجهز عليه ، أو يلحق به خسارة مالية فادحة ، أو يهتك ستره ويشوه سمعته ، إلخ ، ففى مثل هذا الموطن ينقسم الناس إلى نوعين : نوع يشعر بمخافة الله ، فلا يستخدم يده ولسانه ضد خصمه رغم تمكنه منه وتمام قدرته عليه ، والنوع الآخر الذى حين تسنح له فرصة التغلب على أحد يوماً يهينه ، ويتخذ منه عرضة أو ضحية لقهره واضطهاده ، وقد أثبت أول هذين أنه يخاف الله بالغيب ، بينما الآخر أثبت عكس ذلك تماماً ، وإن للأول عند الله نعماً كثيرة لا تُحصى ، وإنّ للأخير عذاباً أليماً لا يُطاق !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ روى الإمام أحمد بسنده عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة ، إن مات ، مات كافراً وإن تاب تاب الله عليه ـ وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » قالت : فقلت : يارسول الله وما طينة الخبال ؟ قال: « صديد أهل النار » .

٢ ـ المؤمن معَّرض دائماً لأن يختبره ربه بالنعم كما يختبره بالنقم ليعلم الله ـ وهو بكل شىء عليم ـ من يخافه بالغيب ، حيث لا رقيب على المسلم إلا نفسه ، ومدى مراقبته لله رب العالمين .

٣ ـ على المؤمن أن يتقى الله فى كل شىء ، ويجتهد فى الوصول لمرتبة الإحسان فى المعتقد شديد العقاب . لمن أصر على المعصية ، ولا يظلم ربك أحداً .

٤ ـ الله سبحانه وتعالى ـ غفور رحيم لمن زلت قدمه ، فتاب وأناب ، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ شديد العقاب ، لمن أصر على المعصية ، ولا يظلم ربك أحدًا .

الجزء السابع — سورة المائدة

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ
عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ
قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ
وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا
عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ
سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾
مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

١٢٤

معانى الكلمات :

للسيارة : المسافرين . **قياماً للناس** : انتعاشاً لهم وقواماً لصالحهم

القلائد : ما يوضع علامة للهدى فى عنقه .

بحيرة : الناقة تشق أذنها وتترك للمعبودات فلا تركب .**سائبة** : الناقة تسيب للأصنام لتشفى من مرض .

وصيلة : الناقة تترك للأصنام إذا كان أول ولادتها أنثى . **حام** : الفحل لا يركب يحمل عليه إذ لقح ولد ولده .

الأهداف الإجرائية والسلوكية

١ ـ بيان عظيم تدبير الله تعالى لخلقه ، إذ جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمناً .

٢ ـ بيان مسؤولية الرسول ﷺ إزاء الناس ، وأنها بلاغ لا غير ، وأنه قد أدى الرسالة ، وبلغ الأمانة ﷺ .

٣ ـ بيان أهمية الأمر بالتقوى رجاء فلاح المتقين .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق مواصلا بيان المحرمات ، وما أحل من الصيد ، فصيد البحر حلال فى الحل والإحرام ، فحيوان البحر حلال صيده وحلال أكله للمحرم ولغير المحرم سواء ، ولما ذكر حل صيد البحر وطعامه ، عاد فذكر حرمة صيد البر للمحرم ، والذى عليه الإجماع هو حرمة صيد البر للمحرم . كما أن هناك خلافاً حول المعنّى بالصيد . وهل هو خاص بالحيوانات التى تصاد عادة . أم النهى شامل لكل حيوان ، ولو لم يكن مما يصاد ومما لا يُطلق عليه لفظ الصيد ، ويختم هذا التحليل وهذا التحريم باستجاشة مشاعر التقوى فى الضمير ؛ والتذكير بالحشر إلى الله والحساب .

ويقول صاحب الظلال : « لقد جعل الله هذه الحرمات تشمل الإنسان والطير والحيوان والحشرات بالأمن فى البيت الحرام وفى فترة الإحرام بالنسبة للمحرم ، حتى وهو لم يبلغ الحرم ، كما جعل الأشهر الحرم الأربعة التى لا يجوز فيها القتل ولا القتال وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثم رجب ، ولقد ألقى الله فى قلوب العرب ـ حتى فى جاهليتهم حرمة هذه الأشهر ، فكانوا لا يروعون فيها نفساً ، ولا يطلبون فيها دماً ، ولا يتوقعون فيها ثأراً ، حتى كان الرجل

يلقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه ، فكانت مجالاً آمناً للسياحة والضرب فى الأرض وابتغاء الرزق ، جعلها الله كذلك ؛ لأنه أراد للكعبة ـ بيت الله الحرام ـ أن تكون مثابة أمن وسلام ، تقيم الناس وتقيهم الخوف والفزع .

كذلك جعل الأشهر الحرم لتكون منطقة أمن فى الزمان كالكعبة منطقة أمن فى المكان ، ثم مد رواق الأمن خارج منطقة الزمان والمكان ، فجعله حقاً للهدى وهو النعم الذى يطلق ليبلغ الكعبة فى الحج والعمرة ، فلا يمسة أحد فى الطريق بسوء ـ كما جعله لمن يتقلد من شجر الحرم ، معلناً احتماءه بالبيت العتيق .

وينتهى الحديث عن الحلال والحرام فى الحل والإحرام بالتحذير صراحة من العقاب مع الإطماع فى المغفرة والرحمة، ثم تختم الفقرة بميزان يقيمه الله للقيم ، ليزن به المسلم ويحكم ، ميزان يرجح فيه الطيب من الخبيث كى لا يخدع الخبيث المسلم بكثرته فى أى وقت وفى أى حال .

بعد ذلك يتجه السياق إلى شىء من تربية الجماعة المسلمة وتوجيهها إلى الأدب الواجب مع رسول الله ﷺ وعدم سؤاله عما لم يخبرها به ، مما لو ظهر لساء السائل وأحرجه أو ترتب عليه تكاليف لا يطيقها ، أو ضيق عليه فى أشياء وسّع الله فيها أو تركها بلا تجديد رحمة بعباده .

وفى حديث مرسل رواه الترمذى والدارقطنى عن على عليه السلام : قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (آل عمران ٩٧) قالوا : يارسول الله أفى كل عام ؟ فسكت : فقالوا : أفى كل عام ؟ قال : « لا : لو قلت نعم ، لوجبت » فأنزل الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

لذلك نهى الله الذين آمنوا أن يسألوا عن أشياء يسؤوهم الكشف عنها ؛ وأنذرهم بأنهم سيجابون عنها إذا سألوا فى فترة الوحى فى حياة رسول الله ﷺ وستترتب عليهم تكاليف عفا الله عنها فتركها ولم يفرضها . ثم ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم ـ من أهل الكتاب ـ ممن كانوا يشدون على أنفسهم بالسؤال عن التكاليف والأحكام ، فلما كتبها الله عليهم كفروا بها ولم يؤدوها ، ولو سكتوا وأخذوا الأمور باليسر الذى شاءه الله لعباده ما شدد عليهم ، وما احتملوا تبعة التقصير والكفران .

وفى الصحيح : « إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرّم أشياء فلا تنتهكوها. وسكت عن أشياء رحمة بكم ـ غير نسيان ـ فلا تسألوا عنها » .

ثم ينتقل السياق ليتحدث عن عادات الجاهلية الباطلة، ويقرر أن الله لم يشرع هذه الطقوس، لم يشرع البحيرة ولا السائبة ولا الوصيلة ولا الحامى ، فمن ذا الذى شرعها إذن لهؤلاء الكفار ؟! والذين يتبعون ما شرعه غير الله هم كفار ، كفار يفترون على الكذب ، مرة يشرعون من عند أنفسهم ثم يقولون : شريعة الله ، ومرة يقولون : إننا نشرع لأنفسنا ، ولا ندخل شريعة الله فى

أوضاعنا ، ونحن مع هذا لا نعصى الله ، وكله كذب على الله : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « إن هذا الدين جد . وقد جاء ليحكم الحياة ، جاء ليعبد الناس لله وحده ، وينتزع من المغتصبين لسلطان الله هذا السلطان ، فيروا الأمر كله إلى شريعة الله ، لا إلى شرع أحد سواه ، وجاءت هذه الشريعة لتحكم الحياة كلها ؛ ولتواجه بأحكام الله حاجات الحياة الواقعية وقضاياها ، ولتدلى بحكم الله فى الواقعة حين تقع بقدر حجمها وشكلها وملابساتها .

ولم يجئ هذا الدين ليكون مجرد شارة أو شعار ؛ ولا لتكون شريعته موضوع دراسة نظرية لا علاقة لها بواقع الحياة ولا لتعيش مع الفروض التى لم تقع ، وتضع لهذه الفروض الطائرة أحكاماً فقهية فى الهواء !

هذا هو جد الإسلام . وهذا هو منهج الإسلام . فمن شاء من « علماء » هذا الدين أن يتبع منهجه بهذا الجد فليطلب تحكيم شريعة الله فى واقع الحياة ، أو على الأقل فليسكت عن الفتوى والقذف بالأحكام فى الهواء ! » .

قال السيوطى فى الإكليل : « قولهتعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ ﴾ الآية ، فيه تحريم هذه الأمور واستنبط منه تحريم جميع تعطيل النافع ، ومن صور المسائبة إرساله الطائر ونحوه ، واستدل ابن الماجشون بالآية على منع أن يقول لعبده أنت السائبة وقال : لا ، يعتق » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ فى الحرم منافع كثيرة للناس فى الدين والدنيا ، ويحل للمحرمين بالحج والعمرة صيد البحر ، ويحرم عليهم صيد البر .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ علمه محيط بكل شىء ، ويجب على المؤمن ألا ييأس من رحمة الله ، وأن يخاف عقابه .

٣ ـ التحذير من كثرة السؤال عمّا لا ينفع فى الدين ، وكراهية الإلحاف فى السؤال ، والتقعر فى الأسئلة ، والتنطع فيها .

ـ وهذه الأشياء المنهى عن السؤال عنها ، صنفها العلماء أصنافاً ثلاثة هى :

* أشياء من أمور الدين ودقائق التكاليف .

* الأمور الغيبية والأسرار الخفية المتعلقة بالأعراض .

* الأشياء التى يكون السؤال عنها سبباً فى المساءلة ، إما بشدة التكاليف وكثرتها ، وإما بظهور حقائق تفضح أهلها.

٤ ـ حق التشريع والتحليل والتحريم لله وحده لا يشاركه فى ذلك أحد .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟
حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ
لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ
بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا
عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ
فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ
وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ
أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ
مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ ۖ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ
أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ
أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾
١٢٥

معانى الكلمات :

حسبنا : كافينا . **عليكم أنفسكم** : الزموها واحفظوها من المعاصى . **ضربتم فى الأرض** : سافرتم فيها . **لا نشترى به ثمناً** : لا نأخذ بحلفنا الكاذب متاعاً . **الأوليان** : الأقربان إلى الميت الوارثان له . **ما اعتدينا** : ما تجاوزنا الحد . **الفاسقين** : الخارجين عن طاعة الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان وجوب إصلاح المؤمن نفسه وتطهيرها من آثار الشرك والمعاصى وذلك بالإيمان والعمل الصالح .

٢ ـ بيان أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٣ ـ بيان وجوب الوصية والإشهاد عليها .

المحتوى التربوى :

تقرر هذه الآيات إن ما شرعه الله بين . وهو محدد فيما أنزل الله ومبين بما سنه رسوله وهذا هو المحك ، وهذه هى النقطة التى يفترق فيها طريق الجاهلية وطريق الإسلام ، فإما أن يدعى الناس إلى ما أنزل الله بنصه وإلى الرسول ببيانه فيلبوا ، فهم إذن مسلمون وإما أن يدعوا إلى الله والرسول فيأبوا ، فهم إذن كفار ، ولا خيار .

وتمضى الآيات بعد تقرير حال الذين كفروا ؛ إلى الذين آمنوا ويقرر حالهم بانفصالهم وتميزهم ، ويبين لهم تكاليفهم وواجبهم ؛ ويحدد لهم موقفهم ممن سواهم ؛ ويكلهم إلى حساب الله وجزائه لا إلى أى مغنم فى هذه الأرض أو مأرب ، ويقرر مبادئ أساسية فى طبيعة الأمة المسلمة ، وفى طبيعة علاقاتها بالأمم الأخرى .

يقول صاحب الظلال : « إن الأمة المسلمة هى حزب الله ، ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان . ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن، لأنه لا اشتراك فى عقيدة؛ ومن ثم لا اشتراك فى هدف أو وسيلة ؛ ولا اشتراك فى تبعة أو جزاء . وعلى الأمة المسلمة أن

تتضامن فيما بينها ؛ وأن تتناصح وتتواصى ، وأن تهتدى بهدى الله الذى جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها . ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئاً أن يضل الناس حولها ما دامت هى قائمة على الهدى .

ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها فى دعوة الناس كلهم إلى الهدى . والهدى هو دينها هى وشريعتها ونظامها . فإذا هى أقامت نظامها فى الأرض بقى عليها أن تدعو الناس كافة . وأن تحاول هدايتهم ، وبقى عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة لتقيم العدل بينهم ؛ ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التى منها أخرجتهم .

إن كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت ، لا يعنى أنها غير محاسبة على التقصير فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما بينها أولاً ؛ ثم فى الأرض جميعاً . وأول المعروف الإسلام لله ، وتحكيم شريعته ؛ وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته . وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت والطاغوت هو كل سلكان غير سلطان الله وحكمه ، والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولاً ؛ وعلى البشرية كلها أخيراً .

روى أصحاب السنن أبا بكر ﷺ قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :« إن الناس إذا رأوا المنكر، ولا يغيرونه ، يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه » .

وهكذا صحح الخليفة الأول ﷺ ما ترامى إلى وهم بعض الناس فى زمانه من هذه الآية الكريمة . ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح ، لأن القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صارت أشقّ ، فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على النحو الذى يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقة ، ويريحهم من عنت الجهاد وبلائه !

ثم تتحدث الآيات عن الحكم الأخير من الأحكام الشرعية التى تتضمنها السورة ، فى بيان بعض أحكام المعاملات فى المجتمع المسلم ، وهو الخاص بتشريع الإشهاد على الوصية فى حالة الضرب فى الأرض ، والبعد عن المجتمع . والضمانات التى تقيمها الشريعة ليصل الحق إلى أهله.

وبيان هذا الحكم الذى تضمنته الآيات الثلاث : أن على من يحس بدنو أجله ، ويريد أن يوصى لأهله بما يحضره من المال ، أن يستحضر شاهدين عدلين من المسلمين إن كان فى الحضر ، ويسلمها ما يريد أن يسلمه لأهله غير الحاضرين . فأما إذا كان ضارباً فى الأرض ولم يجد مسلمين يشهدهما ويسلمهما ما معه ، فيجوز أن يكون الشاهدان من غير المسلمين .

فإن ارتاب المسلمون ـ أو ارتاب أهل الميت ـ فى صدق ما يبلغه الشاهدان وفى أمانتهما فى أداء ما استحفظا عليه ، فإنهم يوقفونها بعد أدائهما للصلاة ـ حسب عقيدتهما ـ ليحلفا بالله ، أنهما لا يتوخيان بالحلف مصلحة لهما ولا أحد آخر ، ولو كان ذا قربى ، ولا يكتمان شيئاً مما استحفظا عليه .. وإلا كانا من الآثمين .. وبذلك تنفذ شهادتهما .

فإذا ظهر بعد ذلك أنهما ارتكبا إثم الشهادة الكاذبة واليمين الكاذبة والخيانة للأمانة ، قام أولى اثنين من أهل الميت بوراثته ، من الذين وقع عليهم هذا الإثم ، بالحلف بالله أن شهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين . وأنهما لم يعتديا بتقريرهما هذه الحقيقة وبذلك تبطل شهادة الأولين ، وتنفذ الشهادة الثانية .

ثم يقول النص : إن هذه الإجراءات أضمن فى أداء الشهادة بالحق أو الخوف من رد أيمان الشاهدين الأولين ، مما يحملهما على تحرى الحق . ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ .

وينتهى إلى دعوة الجميع إلى تقوى الله ، ومراقبته وخشيته ، والطاعة لأوامره ، لأن الله لا يهدى من يفسقون عن طريقه ، إلى خير ولا إلى هدى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن المسلم مطالب بأن يلزم نفسه إصلاح نفسه وتزكيتها بما شرع الله له ، وهو مسؤول عن ذلك أمام الله ومحاسب عليه ، فإن ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ تعنى : الزموا إصلاح أنفسكم .

٢ ـ المسلم المهتدى الذى لا يضره الضالون من الناس ، هو المسلم الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويجاهد فى سبيل الله ؛ لأن ذلك من أصول الهداية . ولا يكون الإنسان مهدياً وهو لا يدعو إلى الخير ولا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر .

٣ ـ نتعلم من الآيات أن مرجع الناس جميعاً إلى الله يوم القيامة يوم الحساب والجزاء ، فليضع كل امرئ نفسه فى المكان الذى يريد .

٤ ـ الحث على الوصية وتأكيدها ؛ لأن الموت قريب من كل أحد ، ولا يجوز التشاغل عنها بالسفر ونحوه أو السكوت عنها فى السفر إذا لم يجد مسلمين يشهدان .

٥ ـ وجوب الإشهاد على الوصية .

٦ ـ يجوز شهادة غير المسلم على الوصية إذا تعذر وجود مسلم .

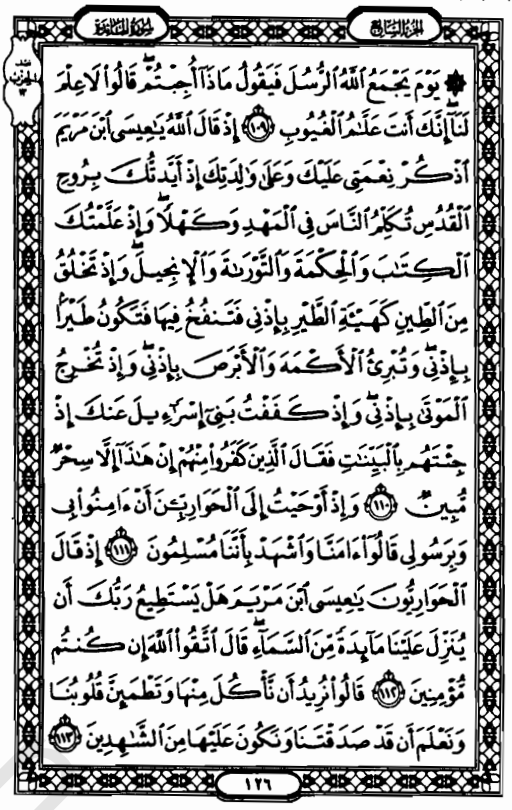
يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ
لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ
ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ
مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا
بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ
ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ
جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى
وَبِرَسُولِى ۖ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ
ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن
يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا
وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾
١٢٦

معانى الكلمات :

أيدتك : قويتك . **بروح القدس** : جبريل عليه السلام . **فى المهد** : فى زمن الرضاعة قبل أوان الكلام . **كهلا** : حال اكتمال القوة .

تخلق : تصور وتقدّر . **الأكمه** : الأعمى بالخلقة . **كففت** : دفعت وصرفت .

بالبينات : بالمعجزات الواضحات .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان شدة أهوال يوم القيامة وصعوبة الموقف فى عرصات القيامة .

٢ ـ بيان إكرام الله تعالى لعيسى وما حباه من الفضل والنعم .

٣ ـ ثبوت معجزات عيسى عليه السلام وتقريرها .

٤ ـ أن نستعد ليوم القيامة وهوله بتقوى الله عز وجل .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يواصل السياق تصحيح العقيدة ؛ وتقويم ما دخل عليها عند النصارى من انحرافات أخرجتها من أصلها السماوى عند قاعدتها الأساسية ، وتصور الآيات مشهدًا من مشاهد يوم القيامة : يوم يجمع الله الرسل الذى فرقهم فى الزمان فتتابعوا على مداره ؛ وفرقهم فى المكان فذهب كل إلى قريته ؛ وفرقهم فى الأجناس فمضى كلٌ إلى قومه ، يدعون كلهم بدعوة واحدة على اختلاف الزمان والمكان والأقوام ، حتى جاء خاتمهم ﷺ بالدعوة الواحدة لكل زمان ومكان وللناس كافة من جميع الأجناس والألوان .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ : فلقد دعوا أقوامهم إلى الهدى ؛ فاستجاب منهم من استجاب ، وتولى منهم من تولى ، وما يعلم الرسول حقيقة من استجاب إن كان يعرف حقيقة من تولى ؛ لذا فهم ـ أى الرسل ـ يعلنون أن العلم الحق لله وحده ؛ وأن ما لديهم من علم لا ينبغى أن يدلوا به فى حضرة صاحب العلم ، وتأدباً وحياء، ومعرفة بقدرهم فى حضرة الله .

ويلتفت الخطاب إلى عيسى ابن مريم وحده ؛ لأنه هو الذى فُتن قومه فيه ، وهو الذى خاض ناس فى الأوهام والأساطير حول ذاته ، وحول صفاته ، وحول نشأته ومنتهاه ويلتفت إليه

ويذكر نعمة الله عليه وعلى والدته ؛ ويستعرض المعجزات التى آتاها الله إياه ليصدق الناس برسالته ، فكذبه من كذبه منهم أشد التكذيب وأقبحه ؛ وفتن به وبالآيات التى جاءت معه من فتن ؛ وألّـهوه مع الله من أجل هذه الآيات ، وهى كلها من صنع الله الذى خلقه وأرسله وأيده بالمعجزات .

يقول **الإمام محمد أبى زهرة فى زهرة التفاسير** : « ذكر سبحانه وتعالى عيسى عليه السلام فى ذلك اليوم المحشود ، وما كان التذكير إلا للمبطلين الذين افتروا عليه ، وهو سرد لنعم الله ـ تعالى ـ على عيسى وأمه ، وأنه مخلوق من فضل الله ، وما أعطى من خواص فبفضل من الله تعالى ، وهو مانحها ومعطيها ، وما دام هو المانح ، وهو المعطى ، فلا فضل لعيسى على أحد إلا بفضل من أعطى ، ولا يمكن أن يكون له ولدًا أو قرينا » .

وقال القاسمى : « وتخصيص شأن عيسى عليه السلام بالبيان .. لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نعيت عليهم فى السورة » .

إنها المواجهة بما كان من نعم الله على عيسى ابن مريم وأمه ، من تأييده بروح القدس فى مهده، وهو يكلم الناس فى غير موعد الكلام ؛ ليبرئ أمه من الشبهة التى أثارتها ولادته على غير مثال ؛ ثم وهو يكلمهم فى الكهولة يدعوهم إلى الله ، وروح القدس جبريل عليه السلام يؤيده هنا وهناك ، ومن تعليمه الكتاب والحكمة ؛ وقد جاء إلى هذه الأرض لا يعلم شيئاً ، فعلمه الكتاب وعلمه كيف يُحسن تصريف الأمور ، كما علّمه التوراة التى جاء فوجدها فى بنى إسرائيل ، والإنجيل الذى آتاه إياه مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، ثم من إيتائه خارق المعجزات التى لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله ، فإذا هو يصور من الطين كهيئة الطير بإذن الله ؛ فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ـ لا ندرى كيف ؛ لأننا لا ندرى إلى اليوم كيف خلق الله الحياة ، وكيف يبث الحياة فى الأحياء ـ وإذا هو يبرئ المولود أعمى ـ بإذن الله ـ حيث لا يعرف الطب كيف يرد إليه البصر ـ ولكن الله الذى يهب البصر أصلاً قادر على أن يفتح عينيه للنور ـ ويبرئ الأبرص بإذن الله ، لا بدواء ـ والدواء وسيلة لتحقيق إذن الله فى الشفاء ، وصاحب الإذن قادر على تغيير الوسيلة ، وعلى تحقيق الغاية بلا وسيلة وإذا هو يحيى الموتى بإذن الله ـ وواهب الحياة أول مرة ، مرة قادر على رجعها حين يشاء .

ثم يذكره بنعمة الله عليه فى حمايته من بنى إسرائيل ، إذ جاءهم بهذه البينات كلها فكذبوه وزعموا أن معجزاته هذه الخارقة سحر مبين ! ذلك أنهم لم يستطيعوا إنكار وقوعها ـ وقد شهدتها الألوف ـ ولم يريدوا التسليم بدلالتها عنادًا وكبرًا .. حمايته منهم فلم يقتلوه ـ كما أرادوا ولم يصلبوه ، بل توفاه الله ورفعه إليه ، كذلك يذكره بنعمة الله عليه فى إلهام الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله ، فإذا هم ملبون مستسلمون يشهدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسهم كاملة لله :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « إنها النعم التى آتاها الله عيسى ابن مريم ، لتكون له شهادة وبينة ، فإذا كثرة من أتباعه تتخذ منها مادة للزيغ ؛ وتصوغ منها وحولها الأضاليل ـ فها هو ذا عيسى يواجه بها على مشهد من الملأ الأعلى ، ومن الناس جميعاً ، ومنهم قومه الغالون فيه ، ها هو ذا يواجه بها ؛ ليسمع قومه ويروا ؛ وليكون الخزى أوجع وأفضح على مشهد من العالمين !

ويستطرد السياق فى معرض النعم والآيات الواضحات على عيسى ابن مريم وأمه ـ عليهما السلام ـ إلى شىء من نعمة الله على قومه ، ومن معجزاته التى أيده الله بها وشهدها وشهد بها الحواريون ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً ﴾ الآية .

يقول صاحب الظلال : « ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى المستخلصين منهم وهم الحواريون ، فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا ﷺ فرق بعيد ، إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى ، فآمنوا وأشهدوا عيسى على إسلامهم ، ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا ، يطلبون خارقة جديدة، تطمئن بها نفوسهم ويعلمون منها أنه صدقهم ، ويشهدون بها له لمن وراءهم » .

فأما أصحاب محمد ﷺ فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم ، لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان ، ولقد صدقوا رسولهم ، فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان ، ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن .

هذا هو الفارق الكبير بين حواريى عيسى عليه السلام وحوايى محمد ﷺ ذلك مستوى وهذا مستوى ، وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون . ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ شدة هول يوم القيامة وصعوبة الموقف حتى إن الرسل ليذهلون ويُسألون عما فعلوا مع أقوامهم .

٢ ـ وجوب الاستعداد لذلك اليوم بتقوى الله تعالى .

٣ ـ التأدب مع الله ـ عز وجل ـ وتفويض العلم إليه .

٤ ـ على الدعاة أن يوقنوا أن الله تعالى سائلهم عما قدموا فى مجال الدعوة والحركة لهذا الدين ومحاسبهم عليه ، وأن المخرج من هذا هو الجد والعمل المتواصل والإخلاص والتجرد ، والحرص على المدعوين والصبر عليهم ، فإن ذلك وحده هو المعفى من الحرج أمام الله تعالى .

٥ ـ القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن بعض الناس قد يصبح مؤمناً ويمسى كافراً فالحواريون قالوا : ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ ثم أصبحوا يقولون : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ .

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ
تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ
خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ
مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾
وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي
وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا
قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ
وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ
يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾
لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾
١٢٧

معانى الكلمات :

عيداً : سروراً وفرحاً أو يوماً نعظمه .

سبحانك : تنزيهاً لك من أن أقول ذلك .

شهيداً : رقيباً وحفيظاً . **توفيتنى** : أخذتنى إليك برفعى إلى السماء حيا . **شهيد** : مطلع عليه مراقب له . **أبداً** : من غير انقطاع .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتأدب مع الله عز وجل فى الطلب والسؤال والدعاء .

٢ ـ أن نصدق الله فى أقوالنا وأفعالنا؛ لأن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة .

٣ ـ أن نثق ونوقن فى قدرة الله الكاملة والشاملة لكل ما فى الأرض والسماء . وحده لا شريك له ولا رب سواه .

٤ ـ بيان براءة عيسى ابن مريم من دعاوى النصارى وافتراءات أهل الكتاب .

المحتوى التربوى :

تستكمل هذه الآيات قصة المائدة والتى لم ترد فى كتب النصارى ، كما وردت فى القرآن الكريم ، ولكن وردت بصور أخرى ، لا يتسع المقام لذكرها ، كما فى نهاية الإصحاح الخامس عشر من إنجيل متى ، وبعض التابعين ـ رضوان الله عليهم ـ كمجاهد والحسن : يريان أن المائدة لم تنزل ؛ لأن الحواريين حينما سمعوا قول الله سبحانه : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .. خافوا وكفوا عن طلب نزولها .

ولكن أكثر آراء السلف على أنها نزلت ؛ لأن الله تعالى قال : « إنى منزلها عليكم » ووعد الله حق ، وما أورده القرآن الكريم عن المائدة هو الذى نعتمده فى أمرها دون سواه .

ثم تصور الآيات موقف عيسى ابن مريم عليه السلام فى مواجهة قومه يوم الحشر وعلى مشهد من العالمين ، ورده عليهم محذراً إياهم من طلب هذه الخارقة ؛ لأن المؤمنين لا يطلبون الخوارق ، ولا يقترفون على الله : ﴿ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لكن الحواريين كرروا الطلب ، معلنين عن علته وأسبابه ، وما يرجون من ورائه ؛ فهم يريدون أن يأكلوا من هذا الطعام الفريد الذى لا

نظير له عند أهل الأرض ، وتطمئن قلوبهم برؤية هذه الخارقة وهى تتحقق أمام أعينهم ؛ ويستيقنوا أن عيسى عليه السلام قد صدقهم ، ثم يكونوا شهوداً لدى بقية قومهم على وقوع هذه المعجزة .

عندئذ اتجه عيسى عليه السلام إلى ربه يدعوه ؛ وفى دعاء عيسى ابن مريم ـ أدب العبد المجتبى مع إلهه ومعرفته بربه ، فهو يناديه يا الله ،يا ربنا ، إننى أدعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء ، تعمنا بالخير والفرحة كالعيد ، فتكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ؛ وأن هذا من رزقك فارزقنا وأنت خير الرازقين ، فهو إذن يعرف أنه عبد ، وأن الله ربه . وهذا الاعتراف يعرض على مشهد من العالمين فى مواجهة قومه يوم المشهد العظيم !

واستجاب الله دعاء عبده الصالح عيسى ابن مريم ؛ ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه ، لقد طلبوا خارقة واستجاب الله على أن يعذب من يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذابًا شديدًا بالغًا فى شدته لا يعذبه أحداً من العالمين فهذا هو الجد اللائق بجلال الله ؛ حتى لا يصبح طلب الخوارق تسلية ولهواً . وحتى لا يمضى الذين يكفرون بعد البرهان المفحم دون جزاء رادع !

وقد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يكذبون بالرسل بعد المعجزة . ويسكت السياق بعد وعد الله وتهديده ، ليمضى إلى القضية الأساسية ، قضية الألوهية والربوبية فيطرح الله استجوابًا مباشراً فى هذه المرة فى مسألة الألوهية المدعاة لعيسى ابن مريم وأمه . استجواباً يوجه إلى عيسى عليه السلام فى مواجهة الذين عبدوه ؛ ليسمعوه وهو يتبرأ إلى ربه فى دهش وفزع من هذه الكبيرة التى افتروها عليه وهو منها برىء .

وإن الله ـ سبحانه ـ ليعلم ماذا قال عيسى للناس ، ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب فى اليوم العظيم المرهوب : الاستجواب الذى يقصد ربه إلى غير المسؤول ؛ ولكن فى صورته هذه، وفى الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلهين لهذا العبد الصالح الكريم .

ويقول صاحب الظلال : « إنها الكبيرة التى لا يطيق بشر عادى أن يقذف بها .. أن يدعى الألوهية وهو يعلم أنه عبد .. فكيف برسول من أولى العزم ؟ كيف بعيسى ابن مريم ؛ وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعد ما اصطفاه بالرسالة وقبل ما اصطفاه ؟ كيف به يواجه استجوابًا عن ادعاء الألوهية ، وهو العبد الصالح المستقيم ؟

من أجل ذلك كان الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب ، يبدأ بالتسبيح والتنزيه ﴿ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون شأنه هذا القول أصلاً ، ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته ، مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته ، وخصائص ألوهية ربه عز وجل .

وعندئذ فقط . وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله ، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله ، ويدعوهم إلى عبادته . ثم يخلى يده منهم

بعد أن رفعه الله إليه ، وينتهى إلى التفويض المطلق فى أمرهم ، مع تقرير عبوديتهم لله وحده ، وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم ، وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب ، ويختم الله عز وجل هذا الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين بشهادة الصدق لعيسى عليه السلام فيما قال ، قال تعالى : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ الآية . وفى نهاية الآيات ؛ وفى مواجهة هذه الفرية الكبرى التى لم يفتر أضخم منها قط أتباع رسول ! يعلن عز وجل تفرده بملك السموات والأرض وما فيهن ، وقدرته ـ سبحانه ـ على كل شىء بلا حدود .

يقول صاحب الظلال : « وختام السورة يتناسق مع السورة التى تحدث عن « الدين » وتعرضه ممثلاً فى اتباع شريعة الله وحده ، والتلقى منه وحده ، والحكم بما أنزله دون سواه ، إنه المالك الذى له ملك السموات والأرض وما فيهن ، والمالك هو الذى يحكم ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ . إنها قضية واحدة ، قضية الألوهية ، قضية التوحيد ، وقضية الحكم بما أنزل الله ، لتتوحد الألوهية بتحقق التوحيد » .

يقو الإمام محمد أبى زهرة فى زهرة التفاسير : « فى الكلام إشارات بيانية نذكرها :

الأولى : إثبات أن الله وحده هو الجدير بالألوهية ، والمستحق للعبادة ؛ لأنه ذو السلطان الكامل .

الثانية : إن تقديم لفظ الجلالة يفيد وحدة سلطانه وملكه وقدرته أى إنه وحده المالك لكل شىء .

الثالثة : إثبات أنه قادر على كل شىء لا يتقيد بالأسباب والمسببات؛ لأنه على كل شىء قدير، وهو خالق الأسباب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ نتعلم من الآيات مخاطبة الله تبارك وتعالى ، وفضل الصدق الذى ينجى صاحبه من الهلاك والعذاب .

٢ ـ كل ما يصدر منا من قول أو عمل ، فإن الله سبحانه مطلع عليه ومحاسب ومجازٍ ، وهو سبحانه إن شاء عذب المقصر المخطئ ، فكان فى ذلك العدل ، وإن شاء تسامح وغفر ، وفى ذلك الفضل .

٣ ـ نتعلم كذلك من الآيات قدرة الله الشاملة ، وأنه سبحانه لا نظير ولا ند ولا شريك ولا والد ولا ولد ولا صاحبة ولا إله غيره ، ولا رب سواه .

٤ ـ براءة عيسى عليه السلام من مشركى النصارى وافتراءات أهل الكتاب .